

سُورَةُ الْمَاعُونِ

حِينَ تَفْضَحُ الْعِبَادَةَ

الَّتِي لَا تَصْنَعُ إِنْسَانًا



رَدَّادُ السَّلَامِ

سُورَةُ الْمَاعُونِ

حِينَ تُفْضَحُ الْعِبَادَةُ الَّتِي لَا تَصْنَعُ إِنْسَانًا

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۖ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ
يُرَاءُونَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

سورة الماعون قصيرة في عدد آياتها، لكنها تكشف مساحة شاسعة من الزيف
الإنساني؛ فهي لا تتحدث عن إنسان ترك الصلاة فحسب، ولا عن رجل بخل
بإنائه أو متاعه، بل عن قلب كذب بالآخرة حتى وهو يزعم التدئين، ثم فضحته
معاملته للضعفاء، وكشفته صلاته حين صارت حركة بلا روح، وعبادة
تبحث عن عيون الناس ولا تبحث عن رضا الله.

إنها سورة تنقل سؤال الإيمان من اللسان إلى السلوك، ومن المحراب إلى
الطريق، ومن هيئة المصلي إلى قلبه، ومن الكلمات الكبيرة إلى الأشياء
الصغيرة التي يحتاجها الناس.

وفيهما نكتشف أن العقيدة إذا لم تثبت رحمة فقد مات معناها في القلب، وأن
الصلاة إذا لم تهذب صاحبها فقد بقي منها الجسد وغابت الروح، وأن الإنسان
قد يعلن تصديقه بالدين، ثم تفضحه يد تدفع اليتيم، وقلب لا يتحرك لجائع،
وعبادة تنزّين للناس، وباب يغلق في وجه المحتاج.

مدخل: السورة التي تفتش عن الإيمان في أفعالنا

تبدأ السورة بسؤال: ﴿أَرَأَيْتَ؟﴾

وليس السؤال هنا طلبًا لخبرٍ مجهول، بل إيقاظٌ للبصيرة. كأن القرآن يقول: هل رأيت هذا النموذج حقًا؟ هل تأملت ملامحه؟ هل عرفت أن التكذيب بالدين لا يرتدي دائمًا ثوب الإنكار الصريح، بل قد يختبئ خلف المظاهر، ويتسلل إلى السلوك، ويعيش في قلب إنسانٍ يعرف ألفاظ الإيمان ولا يحمل أخلاقه؟ إن القرآن لا يعرف المكذب بالدين من خلال خطابٍ فلسفي يقوله، وإنما يدلنا عليه من خلال إنسانٍ ضعيف يقف أمامه: اليتيم.

فاليتيم هنا ليس تفصيلًا اجتماعيًا عابرًا، بل هو المرأة التي يرى فيها المرء حقيقة إيمانه. لا يملك اليتيم قوةً يخيف بها، ولا جاهًا يجذب به، ولا مالًا يُرجى منه؛ ولذلك تسقط أمامه الأقنعة. من كان يرحم لمصلحةٍ انصرف عنه، ومن كان يحسن طلبًا للمكافأة تجاهله، أما من امتلأ قلبه بالإيمان فإنه يرى في ضعفه أمانةً أودعها الله بين الناس.

هكذا تجعل السورة اليتيم امتحانًا صامتًا للعقيدة.

إنه لا يسأل المرء: ماذا تقول عن الآخرة؟ بل يقف أمامه ضعيفًا، ثم ينتظر جواب عقيدته في حركة يده ونبرة صوته واتساع قلبه. فإذا قسا عليه، ودفعه بعنف، وأشعره أن فقد أبيه أفقده مكانه بين الناس، فقد أجاب عن السؤال، وإن لم ينطق.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾

حين يظهر التكذيب في هيئة معاملة

الدِّين هنا يتسع لمعنى الجزاء والحساب، ويتضمن حقيقة المنهج الذي جاء به الله. والمكذب بيوم الجزاء يعيش - في عمق شعوره - كأن أفعاله تنتهي عند حدود الدنيا، وكأن الضعيف الذي ظلمه لن يقف معه يوماً بين يدي حكم عدل، وكأن الدمعة التي تسبب فيها ستجف بلا حساب، وكأن الأبواب التي أغلقها في وجوه المحتاجين لن تُفتح ملفاتها في الآخرة.

إن الإيمان بالجزاء يمنح كل فعلٍ امتداداً أبدياً. يجعل الكلمة أثقل من صوتها، والنظرة أبعد من لحظتها، والصدقة أبقى من مادتها، والظلم أخطر من مكسبه العاجل. أما حين يغيب هذا الإيمان عن القلب، تصبح الحياة ساحةً مفتوحةً للقوة؛ يأخذ فيها القادر ما يستطيع، ويُدفع الضعيف إلى الهامش لأنه لا يملك ما يدافع به عن نفسه.

ولهذا لم تقل السورة: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَقُول إنه يكذب بالدين؟ بل جعلت البرهان على التكذيب فعلاً يُرى.

قد يجيد الإنسان الحديث عن الإيمان، ولكن العقيدة ليست عبارةً محفوظة؛ إنها قوةٌ خفية تعيد ترتيب علاقة الإنسان بالخلق. وحين لا يظهر أثرها في ساعة الاختبار، يكون اللسان قد تقدّم وحده، وترك القلب بعيداً وراءه.

(فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)

اليد التي تكشف ما أخفاه اللسان

جاءت الفاء في قوله: (فَذَلِكِ) كأنها جوابٌ حاسم: أتريد أن تعرفه؟ إنه ذاك الذي يدعُّ اليتيم.

و«الدعُّ» ليس مجرد الامتناع عن الإكرام؛ إنه الدفع بعنفٍ وجفاء. حركةٌ جسدية تكشف عن قسوةٍ باطنية. فاليد لا تدفع اليتيم وحده، بل تدفع معها معاني الرحمة، وتطرد من القلب ذكر الآخرة، وتعلن أن القوة صارت معيار التعامل.

اليتيم يحمل فقده معه أينما ذهب. قد يبدو كسائر الأطفال، لكن في روحه فراغًا يعرفه كلما رأى يدًا تمتد إلى طفلٍ غيره، أو سمع طفلًا ينادي أباه. إنه لا يحتاج إلى طعامٍ فحسب؛ بل يحتاج إلى أن يشعر أن العالم لم يتحول كله إلى جدارٍ بعد موت أبيه.

وحين يدعُّ الإنسان، فإنه لا يصدّم جسدًا صغيرًا فحسب، بل يضغط على موضع الكسر في روحه.

لذلك كان إكرام اليتيم أكثر من نفقة، وكان جبره أكثر من صدقة. إنه إعادة شيءٍ من الأمان إلى قلبٍ باغته الفقد مبكرًا. ومن هنا نفهم لماذا جعلت السورة موقف الإنسان من اليتيم دليلًا على موقفه من الدين: لأن الإيمان الصادق يوقظ في القلب حساسيةً تجاه الكسور التي لا يراها الناس.

ليس المؤمن من ينتظر حتى يصرخ الضعيف، بل من يسمع أنين حاجته قبل أن تتحول إلى صرخة.

(وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

حين تموت الرحمة مرتين

لم تقل الآية: ولا يطعم المسكين، بل قالت: (وَلَا يَحْضُ).

وهنا تبلغ السورة غورًا أبعد؛ فهي لا تحاكم اليد التي لم تُعْطِ فقط، بل تحاكم القلب الذي لم يعد يتألم، واللسان الذي لم يعد يدعو إلى الرحمة، والمجتمع الذي رأى الجوع ثم واصل حياته كأن شيئاً لم يكن.

قد لا يملك الإنسان ما يطعم به، لكنه يملك كلمةً توقظ قادرًا، أو دلالةً تصل بين محتاج ومحسن، أو موقفًا يصنع في المجتمع حياءً من ترك الجائع وحيدًا. فإذا لم يعط ولم يحض، فقد ماتت الرحمة في داخله مرتين: مرةً حين قبض يده، ومرةً حين أسكت لسانه.

وتأمل دقة التعبير: (طَعَامِ الْمِسْكِينِ)، لا «الطعام للمسكين». كأن في الإضافة إشارةً إلى أن للمسكين حقًا في هذا الطعام؛ فما يصل إليه ليس منحةً يتعالى بها الغني، بل حقٌّ ساقه الله إليه على يد أخيه. إن المعطي لا يخلق رزق الفقير، وإنما يؤديه إليه.

وهكذا تصح السورة أخلاق العطاء: ليس المحتاج مدينًا لك لأنك أعطيته، بل أنت ممتنٌ لله أن جعلك طريقًا ولم يجعلك موضع الحاجة.

الجوع في ميزان السورة ليس مشكلة فردٍ أخفق في تدبير شأنه فحسب؛ إنه سؤالٌ أخلاقي يوجّه إلى المجتمع كله: كيف شبعتم وبقي بينكم جائع؟ كيف امتلأت الموائد ولم يتحرك قلبٌ لطبقٍ فارغ؟ كيف أصبح الطعام مناسبةً لاستعراض النعمة بدل أن يكون جسرًا لعبور الرحمة؟

إن الحضّ على طعام المسكين يعني أن الرحمة ليست انفعاليًا خاصًا، بل ثقافةٌ يجب أن تسري بين الناس، حتى يصبح الجوع عارًا اجتماعيًا لا قدرًا يتفرج عليه الشبعان.

المفاجأة المزلزلة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾

كان السياق يتحدث عن مكذبٍ بالدين، وعن يتيمٍ مدفوع، ومسكينٍ منسي؛ ثم جاءت المفاجأة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.

إنها آيةٌ تهزّ الاطمئنان الكاذب. فالمشكلة ليست دائمًا خارج المسجد، وقد يكون الإنسان حاضرًا في صف الصلاة، لكنه غائبٌ عن معناها. ينحني جسده ولا ينكسر كبره، ويسجد رأسه ولا تسجد أنانيته، ويردد ذكر الله ثم يخرج وفي قلبه متسعٌ للرياء والقسوة والبخل.

لم تقل الآية: «فويل لتاركي الصلاة»، بل قالت: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾، ثم وصفت صنفًا منهم. وكأنها تحذّر من أن العبادة نفسها قد تتحول إلى ستارٍ يحجب الإنسان عن رؤية خرابه الداخلي، حين يظن أن أداء الصورة يغنيه عن حضور الحقيقة.

إن الصلاة التي أرادها الله ليست عزلة مؤقتة عن الحياة، بل عودة إليها بقلبٍ أصلح. هي موعدٌ متكرر لتخليص الروح من قسوتها، وإعادة الإنسان إلى حجمه الحقيقي: عبدٌ يقف مع سائر العباد بين يدي الله، لا يملك من ذاته شيئاً.

فإذا خرج من صلاته مستعليًا على اليتيم، باردًا أمام جوع المسكين، حريصًا على نظرات الناس، مانعًا أبسط وجوه النفع، فإن الصلاة لم تعبر من جوارحه إلى ضميره.

وحينئذٍ تصبح حركات العبادة شاهدةً عليه، لا شاهدةً له.

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

غياب القلب وانفصال العبادة عن الحياة

قالت الآية: (عَنْ صَلَاتِهِمْ)، ولم تقل: «في صلاتهم».

فالسهو العارض في أثناء الصلاة من طبيعة البشر، أما السهو عنها فهو غفلة عن شأنها، وتضييع لوقتها، واستخفاف بمكانتها، وانفصال عن غايتها. إنهم لا يحملون همَّ الصلاة، وإنما يؤدون منها ما يخدم صورتهم، فإذا غابت العيون غاب حرصهم، وإذا حضرت الجماعة حضر نشاطهم.

ويمكن أن يمتد معنى السهو إلى ما بعد الصلاة: أن يفرغ الإنسان منها ثم يسهو عن عهدها. لقد قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، ثم عبد مكانته في عيون الناس. وقال: (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، ثم تعلّق قلبه بالقوة والجاه. وسأل الله الهداية، ثم مرّ بالمحتاج كأن طريق الهداية لا يمرّ به.

إن أخطر السهو ليس أن تنسى عدد الركعات، بل أن تنسى لماذا ركعت،
ولماذا سجدت، ولماذا وقفت بين يدي الله.

قد يستيقظ المرء من سهوٍ داخل الصلاة بسجدة، ولكن من يوقظه من سهوٍ
جعل حياته كلها خارج معناها؟

(الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)

حين تصبح عيون الناس قبلةً خفية

الرياء هو أن يعمل الإنسان لله في ظاهر الفعل، بينما يتجه في باطنه إلى
الناس. جسده نحو القبلة، وقلبه يلتفت إلى العيون. يطيل حين يُرى، ويختصر
حين يخلو، وينشط حين يُمدح، ويفتر حين لا يجد من يسجل له بطولة
الصلاح.

إن المرائي لا يعبد الله وحده، بل يعبد صورته عند الناس.

والمأساة أنه قد يحصل على ما طلب: ثناءً عابر، وسمعةً حسنة، ومكانةً في
القلوب؛ لكنه حين يصل إلى الآخرة يكتشف أنه أنفق أثمن أعماله ليشترى بها
كلماتٍ ماتت في أفواه قائلها.

الرياء يُفسد العلاقة بالله لأنه يحوّل العبادة من لقاءٍ خفي بين العبد وربّه إلى
عرضٍ اجتماعي. وحين يصبح الناس جمهور العبادة، يغدو رضاهم هو
المقياس، وتفقد الطاعة صدقها الهادي.

ولذلك كان العمل الخفي حصناً للروح؛ ففي الخفاء تسقط الحاجة إلى التصفيق، ويقف الإنسان أمام الحقيقة عارياً من صورته العامة، فلا يعلم بدمعته إلا الله، ولا يسمع دعاءه إلا الله، ولا يرى صدق محاولته إلا الله.

هناك، في المساحة التي لا يدخلها الجمهور، يتقرر من نعبد حقاً.

{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}

سقوط الإنسان في امتحان الأشياء الصغيرة

تنتهي السورة بالماعون: بما يتعاوره الناس بينهم من أدوات ومنافع يسيرة، وبكل نفع قليل لا يكلف صاحبه كثيراً.

وهذه نهاية مدهشة؛ فقد بدأت السورة بالتكذيب بالدين، وهو أمرٌ عظيم، وانتهت بمنع شيءٍ صغير. وكأنها ترسم المسافة بين فساد العقيدة وبخل اليد: حين يختل المعنى الكبير في القلب، يظهر أثره حتى في أصغر الأشياء.

إن صاحب هذا القلب لا يمنع الثروات العظيمة وحدها، بل يضيق حتى بالشيء الذي لا ينقصه، ولا يحتمل أن ينتفع غيره بما في يده، ولو كان نفعاً عابراً. لقد استوطن المنع روحه؛ فهو لا يرى الأشياء وسائل للتراحم، بل أسواراً يحدد بها ملكيته ويعزل بها نفسه عن الناس.

والماعون امتحانٌ يومي لا يحتاج إلى ثراء. قد يعجز المرء عن بناء مستشفى، لكنه يستطيع إعارة أداة، أو إرشاد حائر، أو حمل متاع، أو إفساح مكان، أو

منح وقت، أو تقديم معرفة. إنها أعمالٌ تبدو صغيرةً في حساب المادة، لكنها تكشف مقدار اتساع القلب.

فالكرم ليس حجم ما تعطيه فقط، بل مقدار استعدادك لأن تكون نافعًا.

وقد يملك الإنسان الكثير ولا يكون نافعًا لأحد، وقد لا يملك إلا القليل، لكن الله يجعل من حضوره مأوى، ومن كلمته جبرًا، ومن يده عونًا. الأول خزانة مغلقة، والثاني نافذةٌ يدخل منها الضوء.

الخيطة الخفية في السورة

تجمع السورة بين أربعة غائبين:

- يتيمٌ غاب أبوه.

- مسكينٌ غاب طعامه.

- مصلٍّ غاب قلبه.

- مجتمعٌ غاب عنه التعاون.

لكن وراء هؤلاء جميعًا غيابٌ أخطر: غياب الآخرة عن الضمير.

حين تغيب الآخرة، يُدعّ اليتيم لأنه لا قوة له، ويُنسى المسكين لأنه لا نفع يُرجى منه، وتؤدّى الصلاة طلبًا لنظر الناس، ويُمنع الماعون لأن الذات أصبحت مركز الوجود.

وحين تحضر الآخرة، يتغير كل شيء: يصبح اليتيم أمانة، والمسكين طريقاً إلى الله، والصلاة لقاءً صادقاً، والماعون فرصة لبناء المودة.

إن السورة لا تفصل بين الإيمان والإنسان. فلا قيمة لتدين يزداد معه الضعفاء خوفاً، والجائعون وحدةً، والمحتاجون مذلةً. ولا خير في صلاةٍ تحسن هيئة صاحبها أمام الناس، ولا تحسن معاملته لهم.

سورة الماعون تقول لنا في هدوءٍ مخيف:

لا تبحثوا عن حقيقة إيمانكم في الكلمات التي تقولونها عن أنفسكم، بل ابحثوا عنها في الأثر الذي تتركونه في حياة من لا يستطيعون مكافأتكم.

انظروا كيف تعاملون اليتيم حين لا يملك واسطة، والمسكين حين لا يملك ثمناً، والعبادة حين لا يراكم أحد، والشيء الصغير حين يطلبه جارٌّ أو محتاج.

فهناك، عند أطراف الحياة التي نطنها هامشية، تُكتب الإجابة الكبرى عن السؤال الأول: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾؟

ليست سورة الماعون حديثاً عن ملعقة ثُعار، أو لقمة تُبذل، أو يتيم يُمسح على رأسه فحسب. إنها سورةٌ تعيد تعريف التدين كله: أن يكون لله في القلب جلالٌ يمنع الرياء، وللآخرة حضورٌ يمنع الظلم، وللصلاة أثرٌ يمنع القسوة، وللناس حقٌ يجعل منك باباً للنفع لا جداراً للمنع.

إنها سبع آياتٍ فقط، لكنها تقيم ميزاناً لا يترك في الروح زاويةً بلا سؤال:

ماذا صنعت عبادتك بإنسانيتك؟

نعم يا صديقي، بل أرى أن سورة الماعون تصلح لكتيب أدبي تدبري بالغ التأثير؛ لأن السورة على قصرها تحمل بناءً متكاملًا: تبدأ بخلل العقيدة، ثم تتبّع أثره في القلب والمجتمع والعبادة، وتنتهي عند أصغر الأشياء التي تكشف حقيقة الإنسان.

كلمة في السورة

ليست السور القصيرة معاني صغيرة، وإنما هي حقائق عظيمة طُويت في ألفاظ قليلة، كما تُطوى السماوات الواسعة في قطرةٍ تعكس زرقاتها. وربما مرَّ القارئ بسورةٍ يحفظها منذ طفولته، وردّها في صلواته أعوامًا، ثم باغته يومًا معناها، فكأنما يسمعها لأول مرة، وكأن الآيات كانت تنتظر ساعةً ينضج فيها قلبه لتفتح له أبوابها.

ومن هذه السور سورة الماعون.

سبع آيات فقط، لكنها تدخل إلى أخفى مواضع التدين، وتكشف المسافة التي قد تنشأ بين هيئة العبادة وحقيقتها، وبين الكلام عن الإيمان وأثره، وبين السجود لله والرحمة بعباده. إنها سورة لا تكتفي بأن تسأل الإنسان: هل تؤمن؟ بل تنقله من سعة الدعوى إلى ضيق الامتحان، وتضع أمامه يتيماً، ومسكيناً، وصلاةً، وحاجةً صغيرة، ثم تراقب ما يصنع.

فإذا دفع اليتيم، ولم يتحرك لجوع المسكين، وسها عن صلاته، وتزيّن بها للناس، وضمّن بما لا يضرّه بذله، فقد كشفت هذه التفاصيل الصغيرة حقيقةً كبيرةً حاولت العبارات أن تسترها.

هذا الكتاب محاولةٌ للوقوف أمام السورة وقوف المتلقي الذي يريد أن يرى نفسه في مرآتها، لا وقوف الباحث عن المعاني البعيدة التي لا يدل عليها نظمها. سنبدأ من ظاهر ألفاظها، ومن حركتها الداخلية، ومن الانتقال المدهش بين آياتها، ثم نتأمل آثار تلك المعاني في القلب والحياة.

وليس المقصود أن نجعل الرحمة بديلاً من العبادة، أو أن نخترل الدين في الإحسان الاجتماعي؛ فالسورة نفسها تضع الصلاة في قلب المشهد. وإنما المقصود أن العبادة الصادقة لا تبقى معزولةً في الجوارح؛ فهي تنزل إلى أعماق النفس، وتعيد تشكيل نظرتها إلى الناس، وتحررها من الرياء والقسوة والبخل. فالصلاة حقٌّ لله، والرحمة أثرٌ من آثار صدق العبودية له، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

إن سورة الماعون لا تهاجم الصلاة، حاشاها؛ وإنما تحميها من أن تُفَرَّغ من معناها، وتُستعمل ستاراً للقسوة. ولا تضعف شأن التعبد، بل ترفعه حتى لا يرضى الله له أن يكون حركةً عابرة لا تغير صاحبها.

وحين تقرأ في هذا الكتاب عن اليتيم، فلا تحصر اليتيم في فقد الأب وحده، مع بقاء المعنى الشرعي للفظ محفوظاً؛ بل حاول أن ترى حجم الانكسار الذي يعالجه الإكرام. وحين تقرأ عن المسكين، لا تنتظر إلى حاجته بوصفها رقماً في تقرير، بل تخيل قلباً يراقب أولاده وليس في يده ما يسد جوعهم. وحين تقرأ عن الصلاة، فلا تنتظر إلى الآخرين من علي، بل اقترب من صلاتك أنت، واسألها: ما الذي صنعتِه في؟ وحين تبلغ الماعون، فتذكر أن الله قد يزن حقيقة أخلاقنا في أشياء نستصغرها ولا نلقي لها بالاً.

كتبت هذه الصفحات لأن سورة الماعون ليست خطاباً لمجتمع مضى، بل ميزان قائم في كل زمان. ما دام في الأرض يتيمٌ يُقهر، ومسكينٌ يُنسى، ومصلٍ ينشغل بصورته عن سريرته، وإنسانٌ يمنع نفعه عن الناس، فإن السورة ما تزال تواجه العالم بسؤالها الأول: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)؟

وما أحوجنا إلى أن نسمع هذا السؤال قبل أن نسارع إلى تعيين المقصود به خارج أنفسنا؛ فبعض الآيات لا تطلب منا أن نفتح نافذة نراقب منها الناس، بل أن نضع مرآة أمام قلوبنا.

رَدَّادُ السَّلَامِيّ

المقدمة

سبع آيات تزن أخلاق مجتمع كامل

كان يمكن لسورة الماعون أن تبدأ بتقرير مباشر: إن التكذيب بالدين يفسد الأخلاق، وإن القسوة على اليتيم من علاماته، وإن الرياء يحبط العمل. لكنها لم تبدأ هكذا. بدأت بسؤالٍ قصير يلتفت به الخطاب إلى القلب:

(أَرَأَيْتَ؟)

كأن السورة توقظ القارئ من ألفة النظر؛ لأننا قد نرى الأشياء كثيرًا من غير أن نراها حقًا. نرى اليتيم، لكننا لا نرى اليتيم الذي يسكنه. نمرّ بالمسكين، لكننا لا نسمع الصمت الثقيل خلف حاجته. نشاهد المصلين، لكننا لا نعرف أيّ القلوب دخلت مع أجسادها في الصلاة. نتبادل المنافع الصغيرة، لكننا لا ندرك أن أداة بسيطة قد تكشف بنيةً أخلاقيةً كاملة.

فالرؤية التي تطلبها السورة ليست رؤية العين وحدها، بل رؤية البصيرة حين تتجاوز الظاهر إلى ما يختبئ وراءه.

إن الإنسان يستطيع أن يبني لنفسه صورةً عامةً محكمة: يتحدث بلسان التدين، ويحفظ ألفاظ الخير، ويقف في صفوف المصلين، ويختار من المواقف ما يحفظ له مكانته. غير أن القرآن لا يحاكم الصورة التي صنعها المرء لنفسه، وإنما يذهب إلى اللحظات التي ينسى فيها أنه مراقب من الناس، ويتصرف على سجيته مع من لا يخافه ولا يرجو منه نفعًا.

هناك يظهر المعدن.

فأنت لا تعرف حقيقة الرحمة في إنسان من ابتسامته للأقوياء، بل من طريقته في مخاطبة ضعيفٍ لا يستطيع رد الإساءة. ولا تعرف حقيقة كرمه من عطائه الذي يُعلن، بل من نفعٍ صغيرٍ يستطيع منعه دون أن يلومه أحد. ولا تعرف حقيقة صلاته من طول وقوفه أمام الناس، بل من أثر وقوفه بين يدي الله حين يعود إليهم.

ومن هنا اختارت السورة ثلاثة ميادين للكشف:

ميدان الضعف، ويمثله اليتيم والمسكين.

وميدان العبادة، وتمثله الصلاة.

وميدان المعاملة اليومية، ويمثله الماعون.

ثم ربطت هذه الميادين جميعًا بحقيقة واحدة: التصديق بالدين.

ليست العقيدة في التصور القرآني فكرةً باردةً تستقر في الذهن ثم لا شأن لها بحركة اليد ونبرة الصوت وموقف الإنسان من حاجة أخيه. العقيدة جذرٌ خفي، لكن الشجرة كلها تتشكل وفق طبيعته. فإذا صحَّ الجذر، جرى أثره في الأغصان والثمار؛ وإذا فسد، فلن تستر خضرته المصطنعة ما يخرج منه طويلاً.

إن التصديق بيوم الدين يعني أن العالم ليس متروكًا للقوة، وأن حقوق الضعفاء لا تضيق لأنهم عجزوا عن انتزاعها في الدنيا، وأن دمة اليتيم لا تسقط خارج

علم الله، وأن أنين الجائع لا يضيع في ضجيج الموائد، وأن الصلاة ليست مشهدًا اجتماعيًا، وأن أبسط وجوه المنع أو العطاء محفوظٌ في ميزانٍ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة.

أما التكذيب بالجزاء، أو ضعف حضوره في القلب حتى يصير كالغائب، فيحرر الأنانية من خوف العقابة. عندئذٍ يصبح الضعيف بلا قيمة لأنه لا يملك وسيلةً للانتقام، ويصبح المعروف خسارةً لأنه لا يقدم ربحًا عاجلاً، وتتحول العبادة إلى وسيلةٍ لبناء السمعة، ويغدو كل ما في اليد محاطًا بأسوار الملكية القاسية.

وهكذا يبدأ الخراب من غياب الآخرة عن الضمير، ثم لا يلبث أن يظهر في دفعة يد، ولقمة محبوسة، وصلاةٍ مهملة، ونظرةٍ تنتظر المديح، ومتاعٍ يسير يُمنع عن محتاجه.

تبدأ السورة بأكبر القضايا: (يُكَذِّبُ بِالْدينِ).

وتنتهي بشيء قد يبدو من أصغر الأشياء: (الْمَاعُونِ).

وبين البداية والنهاية سرٌّ بنائها كله: إن الحقائق الكبرى التي تسكن القلب تظهر في التفاصيل الصغرى التي تصدر عن الإنسان.

قد يستطيع المرء أن يخفي خلل عقيدته وراء خطابٍ ضخّم، لكنه لن يستطيع أن يمنع هذا الخلل من التسرب إلى معاملاته. فالداخل يترك بصمته على الخارج، ولو في طريقة إغلاق الباب، أو نبذة ردّ المحتاج، أو الضيق من إعارة شيءٍ قليل.

إن الإناء الصغير قد يكون نافذةً على قلبٍ كبير، وقد يكون شاهداً على قلبٍ ضاق حتى لم يعد يتسع لنفع أحد.

وهذا الانتقال من «الدين» إلى «الماعون» يمنح السورة قوتها المدهشة؛ فهي لا تسمح للإنسان أن يظن أن علاقته بالآخرة منفصلة عن أصغر عاداته. ما يعتقده في أعماق أعماقه يخرج من بين أصابعه وهو يناول شيئاً أو يمنعه، ويظهر في عينيه حين يقف أمامه يتيماً، ويتجلى في همته حين يُنادى إلى الصلاة.

ولا تقع المفاجأة الكبرى عند ذكر اليتيم أو المسكين، بل حين تقول السورة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.

هنا ينتقل الخطر من خارج جماعة المتدينين إلى داخل صفوفهم. لم يعد الحديث عن مكذبٍ أعلن يدير ظهره للمحراب، بل عن شخصٍ يؤدي الصلاة، ومع ذلك لم تنقذه صلاته من الوعيد؛ لأنه سها عنها، واتخذها موضعاً للرياء، وفصلها عن الرحمة والنفع.

وهذه النقلة تمنعنا من القراءة المطمئنة. فلا يستطيع المصلّي أن يقرأ أول السورة وهو يشير إلى غيره، ثم يبلغ قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ دون أن يرتجف السؤال في داخله.

إن السورة لا تريد أن تزرع اليأس في قلب المصلّي، وإنما تريد أن تحرر صلاته من الموت البطيء. تحذره من أن تصبح الصلاة عادةً تؤدى بلا تعظيم، أو موعداً يضبطه حضور الناس، أو حركاتٍ لا تعبر إلى السلوك.

إنها تستنقذ الصلاة من الشكل حين ينفصل عن الحقيقة، وتعيدها إلى وظيفتها الكبرى: أن تصل القلب بالله، وأن تبني فيه من الخشوع والصدق والرحمة ما يظهر في الحياة.

فليس المقصود أن الصلاة لا قيمة لها إلا بما تمنحه للمجتمع؛ إنها قبل كل شيء عبادة لله وحق له على عباده. غير أن الذي يقف بين يدي الله خمس مرات، مستحضراً فقره وعظمة ربه، لا يفترض أن يظل قلبه متألهاً على الضعفاء، ولا أن يبقى أسيراً لنظرات الناس، ولا أن يضيق بنفع يسير.

الصلاة الصادقة لا تجعل الإنسان معصوماً من التقصير، لكنها تجعل التقصير يؤلمه، والقسوة تفرعه من نفسه، والرياء عدواً يفتش عنه في قلبه، والبخل عيباً يقاومه. إنها لا تحوله في لحظة إلى إنسان كامل، لكنها تمنعه من مصالحة الخراب الداخلي وتسميته صلاحاً.

وفي سورة الماعون علاقة دقيقة بين القسوة والرياء والمنع. فهذه ليست عيوباً متناثرة جمعت مصادفةً، بل أغصانٌ خارجة من جذع واحد: تضخم الذات وغياب الله والآخرة عن مركز الشعور.

الذي يدعّ اليتيم يرى نفسه أقوى منه.

والذي لا يحض على طعام المسكين يرى أن حاجات الآخرين لا تعنيه.

والذي يراني يجعل صورته عند الناس أكبر من حقيقة عمله عند الله.

والذي يمنع الماعون يجعل ملكيته أعظم من أخوته الإنسانية والإيمانية.

كل واحدٍ منهم محبوسٌ داخل ذاته؛ لا يرى في اليتيم إلا إزعاجًا، ولا في المسكين إلا عبثًا، ولا في الصلاة إلا فرصةً لتحسين صورته، ولا في الماعون إلا شيئًا يملكه. لقد انكمش العالم في عينيه حتى لم يعد فيه سوى «أنا»: قوتي، ومالي، وصورتي، ومتاعي.

أما الإيمان، فيحرر الإنسان من هذا السجن. يفتح في جدار الذات نافذةً يرى منها الله والآخرة والناس. يعلمه أن قوته أمانة، وأن ماله استخلاف، وأن عبادته افتقار، وأن حاجات الخلق ميادين امتحانه.

بهذا المعنى، ليست سورة الماعون سورةً عن الصدقة وحدها، ولا عن النفاق وحده، ولا عن الصلاة وحدها؛ إنها سورةٌ عن وحدة الإنسان من داخله. ترفض أن يكون له وجهٌ في المحراب ووجهٌ في السوق، قلبٌ يرقّ عند التلاوة ويدٌ تقسو عند الحاجة، لسانٌ يذكر الله وسلوكٌ ينفي أثر هذا الذكر.

إنها تريد إيمانًا لا يتجزأ: تصديقًا يسكن القلب، وصلاةً تحفظ العهد، ورحمةً ترى الضعيف، وإخلاصًا يتحرر من الجمهور، ونفعًا يمتد حتى إلى أصغر الأشياء.

ومن أجل ذلك لن نسير في هذه الصفحات على أطراف الآيات مسرعين. سنتوقف عند السؤال قبل أن نطلب الإجابة، وعند دفعة اليد لنرى ما وراءها من قسوة، وعند لقمة المسكين لنعرف لماذا نسبها القرآن إليه، وعند كلمة «فويل» لنشعر بهول المفاجأة، وعند السهو لنعرف كيف تغيب الصلاة مع بقاء حركاتها، وعند الرياء لنرى عبودية الصورة، وعند الماعون لنكتشف أن الأشياء الصغيرة لا تكون صغيرةً حين تكشف حقيقة القلب.

سنقرأ السورة كما لو أننا ندخل بيتاً له سبع نوافذ، لكن كل نافذة تطل على جانبٍ من العالم الإنساني. وحين ننتهي، قد نكتشف أن السورة لم تكن تتحدث عن نموذجٍ بعيدٍ كما توهمنا، بل كانت تقترب خطوةً خطوة، حتى وضعت يدها على موضعٍ خفي في نفوسنا.

فالسؤال ليس: أين المكذب بالدين؟

السؤال الأصدق: كم بقي في سلوكنا من آثار التكذيب، مع أننا ننطق بالتصديق؟

وهنا تبدأ الرحلة.

الفصل الأول

السؤال الذي يوقظ البصيرة

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

لا تبدأ سورة الماعون بحكم يُلقَى، وإنما تبدأ بسؤالٍ يوقظ: (أَرَأَيْتَ)؟

والقرآن حين يسأل لا يطلب دائماً معلومةً يجهلها المخاطب، وإنما قد يفتح في وعيه نافذةً كان يمر بها دون أن ينظر. فكم من شيء وقع أمام العين ولم تقع عليه البصيرة، وكم من وجه رأيناه ولم نر ما وراءه، وكم من سلوك أَلْفناه حتى فقدنا القدرة على الشعور بخطورته.

إن الألفة قد تجعل القسوة عادية، والظلم نظاماً مألوفاً، والجوع مشهداً لا يوقف أحداً، والعبادة الخالية من الروح صورةً محترمة لا يجرؤ أحد على سؤالها. وهنا يأتي القرآن بسؤاله ليكسر القشرة التي كوَّنتها العادة حول القلب:

هل رأيت حقاً؟

هل نظرت في هذا الإنسان الذي يعيش بين الناس، وربما كان حسن الهيئة، فصيح الحديث، ظاهر الصلاح، لكن تصرفاته تفضح غياب الآخرة عن ضميره؟

هل رأيت التكذيب حين لا يكون مقالةً تُقال، بل طريقةً في الحياة؟

ليست كل رؤية إبصارًا

هناك فرقٌ بين أن تنظر إلى الشيء وأن تراه. النظر حركة العين، أما الرؤية التي تريدها السورة فحضور العقل والقلب والضمير معًا.

قد يرى الناس رجلًا يدفع يتيماً عن بابه، فيقولون: لعل الصغير أزعه. ويرون غنيًا لا يبالي بجوع جاره، فيقولون: ماله وهو حرٌّ فيه. ويرون مصلّيًا ينشط أمام الناس ويهمل صلاته في الخفاء، فيقولون: ما أحسن سمته. ويرون من يمنع أبسط المنافع، فيعدّون ذلك حقًا من حقوق الملكية.

لكن القرآن يرى وراء هذه الوقائع المتفرقة نظامًا داخليًا واحدًا. يرى يدًا دفعت اليتيم، فلا يتوقف عند حركة اليد، بل يعود إلى القلب الذي حرّكها. ويرى قلبًا لم يتحرك للمسكين، فلا يعدّ الأمر فتورًا عابرًا، بل يصل ذلك بغياب يوم الدين عن الشعور. ويرى صلاةً تؤدّى للعيون، فيكشف أن العبادة قد تُسرق من وجهتها وهي ما تزال محتفظةً بهيئتها.

هذه هي البصيرة القرآنية: ألا تكتفي بوصف السطح، بل تنفذ إلى الجذر الذي أنبت الفعل.

إن السلوك لا يولد وحيدًا. خلف كل فعلٍ ظاهرٍ تصورٌ خفي عن الله، والإنسان، والحياة، والآخرة. وقد لا يعرف صاحبه كيف يصوغ هذا التصور بالكلمات، لكنه يعلنه في مواقفه.

فالذي يظلم الضعيف لأنه لا يخشى انتقامه، يقول بفعله إن القوة هي الحكم الأخير.

والذي يأكل وجاره جائع ثم لا يشعر بشيء، يقول ببروده إن الإنسان جزيرة منفصلة عن الإنسان.

والذي يتزَيَّن بالصلاة أمام الناس، يقول بسلوكه إن نظر الخلق أرجح في قلبه من علم الخالق.

والذي يمنع ما لا يضره بذلك، يقول إن الأشياء خُلقت لتدور حول ذاته وحدها. إن الأفعال عقائد خرجت من مخابئها.

وربما استطاع اللسان أن يتعلم الجواب الصحيح، أما السلوك فيبقى - في لحظات التجرد - أقل قدرة على الكذب.

مَنْ هُوَ الْمَكْذِبُ بِالْدين؟

(الَّذِي يُكْذِبُ بِالْدين).

يأتي التعبير بصيغة الفعل المضارع: (يُكْذِبُ)، فيوحي بفعل متجدد، لا بخاطرٍ مرّ ثم انقضى. فالتكذيب هنا موقفٌ مستمر تظهر آثاره في الحياة، ويعيد صاحبه إنتاجه كلما واجهته مسؤولية أخلاقية.

والدين يحتمل في السياق معنى الجزاء والحساب، كما يتضمن حقيقة الدين الذي يأمر بالعبادة والرحمة والحق. والمعنيان متصلان؛ لأن من صدّق بالجزاء لم يعد الدين عنده ألفاظاً معلقةً خارج الحياة، بل صار كل موقفٍ يحمل احتمال الحساب، وكل لحظةٍ طريقاً إلى المصير.

إن الإيمان بيوم الدين لا يعني فقط أن يضيف الإنسان إلى معلوماته خبراً عن البعث والجنة والنار. إنه انقلابٌ في معنى الزمن كله؛ فالحاضر لا ينتهي عند لحظته، والعمل لا يموت بعد وقوعه، والحقوق لا تسقط لأن أصحابها عجزوا عن استردادها في الدنيا.

كل شيءٍ ممتد.

الكلمة التي كسرت قلباً لم تنتهِ حين سكت الصوت.

والمال الذي مُنع من محتاج لم تنتهِ قصته حين أغلق الصندوق.

والصلاة التي رآها الناس لم يُحسم أمرها بثنائهم.

واليتيم الذي غادر الباب باكياً لم يختفِ المشهد لمجرد أن الباب أُغلق وراءه.

هناك يومٌ تعود فيه الوقائع من غيابها، وتقف الأعمال أمام أصحابها، وتتكلم الجوارح بما حاولت الأعذار أن تمحوه. هناك لا تكون القوة محامياً، ولا الشهرة شاهد تزكية، ولا الفقر سبباً لضياح الحق.

الإيمان بيوم الدين هو أن تعيش وفي قلبك يقينٌ بأن الحياة لا تستطيع أن تبتلع الجرائم وتمضي، وأن الموت لا يمنح الظالم حصانةً، وأن الضعيف الذي مات قبل أن ينصفه الناس لم يضع حقه، بل انتقل به إلى محكمةٍ لا يضل ربها ولا ينسى.

ولهذا تكون الآخرة حارساً خفياً للأخلاق.

قد يغيب القانون، وتنأى أعين الناس، ويسكت المظلوم عجزاً، ولا يبقى بين الإنسان وبين الخطيئة إلا بابٌ داخلي لا يراه أحد. فإذا كان الإيمان بالآخرة حياً في القلب، وقف ذلك الباب؛ لأن صاحبه يعلم أن الخفاء عن الخلق ليس خفاءً عن الله، وأن الإفلات من حساب الدنيا ليس نجاةً من الحساب.

أما إذا غاب يوم الدين عن الضمير، بقيت الأخلاق معلقةً بقدره الآخرين على المراقبة والعقاب. يحسن المرء ما دام محسنه يُرى، ويكف عن الظلم ما دام يخشى العاقبة، فإذا خلا له الطريق ظهر وجهه الآخر.

إنه لم يكن أخلاقياً، بل كان محاصراً.

التكذيب الذي لا ينطق

ليس كل تكذيبٍ بالدين إعلاناً فلسفياً أو جملةً صريحةً تنكر البعث. فقد يقرّ الإنسان بالآخرة بلسانه، ولكنه يعيش نهاره كأنها لن تأتي. يعرف أن الله يحاسب على الذرة، ثم لا يرى بأساً في ظلم يظنه صغيراً. يتلو أخبار الجزاء، ثم يمنح المكاسب العاجلة سلطةً أعلى من يقينه.

وهنا ينبغي أن نكون دقيقين: ليست السورة حكماً يبيح لنا أن نصف كل عاصٍ أو قاسي القلب بالكفر الاعتقادي؛ فالتكفير حكمٌ له شروطه وضوابطه، وليس مجالاً للتسرع أو إساءة الظن. لكن السورة تكشف بلا ريب أن للتكذيب آثاراً أخلاقية، وأن المؤمن قد يحمل في سلوكه نصيباً من صفات المكذبين حين يضعف حضور الآخرة في قلبه.

وهذا هو موضع الخوف الحقيقي.

ليس الخطر دائماً أن يقول الإنسان: لا أؤمن بيوم الدين. قد يكون الخطر أن يقول: آمنت، ثم يبني اختياراته اليومية على نسيانه. فتظل الآخرة محفوظة في ذاكرته الدينية، لكنها غائبة عن ميزانه العملي.

يعرفها حين يتحدث، وينساها حين يغضب.

يذكرها في الموعظة، ويغفل عنها حين يملك.

يوقن بها عند القبور، ويتصرف في الأسواق والسياسة والخصومات كأن الحساب خرافة.

إن اللسان قد يعلن الإيمان في لحظة، أما الحياة فهي الإعلان الطويل.

يوم الدين وإعادة الاعتبار إلى الضعفاء

لماذا انتقلت السورة من التكذيب بالدين مباشرة إلى اليتيم؟

لأن الضعيف هو أول من يدفع ثمن غياب الآخرة.

حين يفقد المجتمع يقينه بالجزاء، لا تتوزع الخسارة على الناس بالتساوي. القوي يملك من المال أو السلطان أو العلاقات ما يحميه، أما اليتيم فلا يملك إلا حقه، والحق وحده قد يبقى أعزل في مجتمع لا يخاف الله.

إن حضور الآخرة في الضمير يعيد التوازن إلى عالم مختل القوة. يخبر القوي أن قدرته مؤقتة، ويخبر الضعيف أن عجزه ليس نهاية القصة. يجعل اليد التي تستطيع أن تدفع تتردد، لا خوفاً من يد أقوى في الدنيا، بل خشية من يوم تسقط فيه جميع مراتب القوة المصطنعة.

هناك يقف من كان يملك ومن لم يكن يملك في مقام العبودية نفسه.

لا حارس على باب الغني، ولا حاجب يمنع اليتيم، ولا منصب يرفع صاحبه، ولا ثياب تصنع الهيبة. يقف الناس وقد تركوا وراءهم كل ما كانوا يضعونه بين حقيقتهم وأعين الآخرين.

إن يوم الدين أعظم إعلان للمساواة الأخلاقية؛ لأن كل إنسان يأتي فردًا، يحمل عمله، لا اسمه ولا طبقته ولا جمهوره.

ومن أجل ذلك فإن من يظلم اليتيم لا يرتكب قسوة اجتماعية فحسب، بل يتصرف كما لو أن اختلال القوة في الدنيا نهائي. ينسى أن الطفل الذي لا يستطيع اليوم ردّ يده سيقف غدًا في حضرة العدل الإلهي، وأن الدفعة التي حسبها عابرة ستأتي محفوظة لم تسقط منها قسوتها.

حين يتحول الدين إلى زينة

قد يحتفظ المجتمع بمظاهر الدين بينما تتراجع سلطته الأخلاقية في النفوس. تمتلئ الألسنة بالمواعظ، لكن الضعيف لا يجد رحمة. تُبنى المساجد، لكن أبواب القلوب تظل مغلقة. يكثر الحديث عن الفضائل، لكن الإنسان يُوزن بماله ونسبه وقوته، لا بحقه وكرامته.

وحينئذٍ يتحول الدين من قوة تغيّر الإنسان إلى زينةٍ يجمل بها صورته.

وهذا التحول من أخطر ما تكشفه السورة؛ لأنها لا تواجه مجتمعًا خلا من الصلاة تمامًا، بل تواجه تناقضًا أشد تعقيدًا: صلاةٌ موجودة، ورحمةٌ غائبة؛ مظهرٌ ديني، وقلبٌ يتجه إلى أعين الناس؛ ألفاظٌ كبيرة، وماعونٌ صغير يُمنع.

الدين الذي لا يعبر إلى الضمير قد يصبح جزءًا من آلية الخداع. يمنح صاحبه شعورًا زائفًا بالأمان، فيظن أن ما يؤديه من شعائر يعفيه من مراجعة قسوته. وإذا ذُكر بحقوق الناس احتّمى بمظهر العبادة، كأن الصلاة تصرّح دائماً لاستخدام الظلم.

لكن السورة تنزع هذا الغطاء بقوة: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ).

فالصلاة لا تمنح القسوة شرعية، بل تجعلها أكثر تناقضًا. والذي يكثر الوقوف بين يدي الله ثم يزداد استعلاءً على عباده، يحتاج إلى أن يسأل نفسه: بين يدي مَنْ كنت أقف؟ وماذا بقي في قلبي من ذلك الوقوف؟

ليس التدين أن تجمع من العلامات ما يقنع الآخرين بصلاحك، بل أن يحدث الإيمان انقلابًا حقيقيًا في مركزك الداخلي: فلا تعود أنت مركز العالم، ولا مصلحتك هي المعيار الأخير، ولا مدح الناس هو الجزاء الذي تطلبه.

سؤال لا يسمح لنا بالاختباء

﴿أَرَأَيْتَ﴾؟

للسؤال قدرة على إزالة المسافة بين القارئ والنص. فلو بدأت السورة بقولها: «إن الذي يكذب بالدين يدع اليتيم»، لأمكن للمرء أن يسمع الخبر وهو مسترخٍ. لكن السؤال يستدعيه إلى ساحة الشهادة: أَرَأَيْتَ؟

وكأن الرؤية هنا مسؤولية. فما دمت قد رأيت، لم يعد الصمت بريئاً. وما دمت عرفت العلاقة بين غياب الإيمان وقهر الضعيف، فلن تستطيع أن تعدّ الأمر شأنًا لا يعنيك.

إن السؤال يطلب منك أن ترى المكذب، لكنه يطلب كذلك أن ترى اليتيم الذي وقع عليه الأذى. فالظلم ينجح أحياناً لأن المجتمع يحدق في الظالم ويغفل عن المجروح، يهتم بتفسير دوافع القوي أكثر من اهتمامه بجبر قلب الضعيف، ويسأل: لماذا فعل؟ قبل أن يسأل: ماذا حدث لمن وقع عليه الفعل؟

سورة الماعون تعيد اليتيم إلى مركز المشهد.

لا تدعه مجرد خلفية يظهر أمامها فساد المكذب، بل تجعله إنساناً له حرمة، وجرحاً يجب أن يُرى. فكأن قوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ لا يوقظ الفكر وحده، بل يدرب العين على ألا تتجاوز المقهور.

إن أول واجبات الرحمة أن ترى.

فاليَتيم قد يكون قريبًا، لكن المجتمع درّب نفسه على عدم ملاحظته. والمسكين قد يمر كل يوم، لكن كثرة المرور حولته إلى جزءٍ من الطريق. وبعض صور الألم لا تستمر لأن علاجها مستحيل، بل لأن الناس تعلّموا كيف يعيشون بجوارها دون أن تضطرب راحتهم.

من سؤال الرؤية إلى مسؤولية الموقف

إذا فتح القرآن عينيك على موضع الألم، فليس المقصود أن تضيف معلومةً إلى ذهنك، بل أن يتغير موقفك. المعرفة في القرآن عهد، والبصيرة تكليف. وما نراه بقلوبنا لا يحق لنا بعد ذلك أن نعامله كأنه غير موجود.

رؤية اليتيم تستدعي الإكرام.

ورؤية الجوع تستدعي الإطعام أو الحض عليه.

ورؤية الرياء تستدعي مجاهدة القلب.

ورؤية الخلل في الصلاة تستدعي العودة إليها.

ورؤية الحاجة الصغيرة تستدعي أن نفتح أبواب النفع.

لهذا يبدأ الطريق كله من كلمة واحدة: (أَرَأَيْتَ)؟

فالعالم لا يتغير فقط حين يزداد فيه المال، بل حين تتغير طريقة رؤيته للإنسان. قد تكون الموارد موجودةً، ولكن العين لا ترى صاحب الحاجة. وقد تكون النصوص محفوظةً، ولكن القلب لا يرى نفسه مخاطبًا بها. وقد تؤدّى الصلاة، ولكن صاحبها لا يرى التناقض بين سجوده وقسوته.

البصيرة هي أن تتجمع هذه الأجزاء في وعيك، فتري أن اليتيم ليس بعيدًا عن العقيدة، وأن لقمة المسكين ليست منفصلةً عن الآخرة، وأن الصلاة ليست منفصلةً عن الأخلاق، وأن إعارة المتاع الصغير ليست أقل من أن يلتفت إليها الوحي.

الآخرة التي ينبغي أن تسكن الحاضر

الإيمان بيوم الدين ليس هروبًا من الدنيا، بل هو أعمق طريقةٍ لإصلاحها. فالذي يؤمن بأن كل حقٍ سيعود، يصير أشد حرصًا على أدائه الآن. والذي يعرف أن المال سيتركه، يحسن استخدامه قبل أن يفارقه. والذي يوقن أن القوة ستزول، لا يجعلها سكينًا على رقاب الضعفاء.

الآخرة لا تنتزع الإنسان من الحاضر، وإنما تمنع الحاضر من ابتلاعه.

تمنع لحظة الغضب من أن تصبح قدرًا للإنسانِ ضعيف.

وتمنع لذة التملك من أن تغلق أبواب العطاء.

وتمنع حلاوة المديح من أن تسرق العبادة.

وتمنع ضالة المعروف من أن تجعلنا نزهد فيه.

من عاش للحظة أخذ منها ما يستطيع، ولو ترك خلفه قلوبًا محطمة. أما من عاش وهو يرى ما وراءها، فإنه يزن الفعل بمصيره، لا بلذته العاجلة.

وهكذا تنتقلنا الآية الأولى من سؤال الرؤية إلى يقظة الحساب. وحين تستيقظ الآخرة في القلب، يبدأ الإنسان برؤية من كان يعبر بجواره دون أن يراه.

وأول من تضعه السورة أمامه ليس ملكًا ولا عالمًا ولا صاحب سلطان.

إنه طفلٌ فقد أباه.

كأن القرآن يريد أن يقول: إذا أردت أن تعرف مقدار حضور يوم الدين في قلب إنسان، فلا تسأله أولًا عن براهينه النظرية، بل انظر كيف تتصرف قوته حين تواجه ضعفًا لا يحميه أحد.

وهنا تتركنا الآية الأولى أمام الباب، ثم تفتحه الآية التالية على مشهدٍ لا يحتاج إلى خطبةٍ طويلة: يَدُّ غَلِيظَةً، وطفلٌ وحيد، ودفعةٌ تختصر خرابًا كاملاً: ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾.

الفصل الثاني

اليتم مرآة القلب

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)

بعد السؤال لا يتركنا القرآن نبحث طويلاً عن الإجابة: (فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ).

جاءت الفاء سريعة حاسمة، كأنها تمسك بأيدينا وتقودنا مباشرة إلى موضع الدليل: إذا أردت أن تعرف المكذب بالدين، فلا تنشغل كثيراً بما يعلنه عن نفسه؛ انظر إلى معاملته لمن لا يملك قوة ولا جاهاً ولا قدرة على المكافأة.

هناك تسقط الزينة، وتظهر الحقيقة بلا طلاء.

فالناس يستطيعون أن يكونوا لطفاء أمام من يخافون غضبه، أو يرجون ماله، أو يحتاجون إلى مكانته. وقد يحسن المرء اختيار عباراته حين يخاطب صاحب سلطان، ويتقن التواضع أمام من يفتح له الأبواب. لكن اليتيم لا يملك شيئاً من ذلك؛ ولذلك تتحول معاملته إلى اختبارٍ نقيٍّ لا تكاد المصالح تفسده.

إنه لا يَعِدُّك بمنصب، ولا يرفع ذكرك بين الناس، ولا ينتقم منك إن ظلمته. وليس وراءه أبٌّ يأتي غاضباً ليسألك: لماذا كسرت قلب ولدي؟

وهنا، في غياب الحارس الأرضي، يظهر مقدار حضور الحارس السماوي في قلبك.

ما معنى أن يكون الطفل يتيمًا؟

اليتيم في ظاهره فقد الأب قبل البلوغ، لكنه في التجربة الإنسانية أوسع من تعريفه اللغوي. إنه أن يستيقظ الطفل فيجد أن الجدار الذي كان يسند عالمه قد غاب، وأن اليد التي كان يلوذ بها لم تعد في البيت، وأن الاسم الذي كان يمنحه الأمان صار ذكرى.

الأطفال لا يفهمون الموت كما يفهمه الكبار. قد لا يعرف الطفل معنى النهاية، لكنه يعرف أن صوتًا كان يسمعه قد انقطع، وأن مكانًا على المائدة ظل فارغًا، وأن بابًا كان يُفتح لم يعد يُفتح بالطريقة نفسها.

ثم يكبر قليلًا، فيتجدد اليتيم معه.

يرى طفلًا يمشي ممسكًا بيد أبيه، فيفهم من المشهد جانبًا جديدًا من خسارته. يسمع زميلًا يتحدث عما اشترى له أبوه، فيكتشف أن الفقد لا يحدث مرة واحدة، بل يعود في مناسبات الحياة كلها، ويتخذ في كل عمر صورةً مختلفة.

يموت الأب في يوم، لكن معنى موته قد يمتد سنواتٍ داخل الطفل.

ولهذا لا يكون إكرام اليتيم مجرد تقديم مالٍ يسد حاجته الظاهرة. قد يشبع بطنه ويبقى قلبه جائعًا إلى الأمان. وقد تُشترى له الثياب، لكن نظرة ازدراءٍ واحدة تجعله يشعر أن ما أُعطي له لم يكن رحمةً، بل ثمنًا لإذلاله.

اليتيم لا يحتاج فقط إلى من ينفق عليه؛ يحتاج إلى من يحرس كرامته من أن تتحول حاجته إلى بابٍ للامتهان.

الدُّعُ: حين تتكلم القسوة باليد

لم تقل الآية: «فذلك الذي لا يكرم اليتيم»، مع أن ترك الإكرام مذموم، ولم تقل: «يهمل اليتيم»، بل اختارت فعلاً أشد: {يَدُعُ}.

والدُّعُ هو الدفع بشدةٍ وعنف وجفاء. وفي الكلمة صوتٌ يكاد يصور الحركة: يدُّ تمتد لا لتحضن، بل لتزجر؛ لا لتمسح الرأس، بل لتزيع الجسد عن الطريق.

إنها لحظة قصيرة، لكن القرآن يرى داخلها تاريخاً من القسوة.

ربما جاء اليتيم يسأل حقاً من ماله، أو يطلب طعاماً، أو يلتمس عوناً، أو اقترب فحسب من مكانٍ ظن أن فيه رحمة. لكن صاحب القلب القاسي لا يرى قصة الطفل ولا خسارته؛ يرى إزعاجاً يريد التخلص منه. فلا يكفيه أن يردّه، بل يدفعه، وكأنه يعاقبه على ضعفه.

والقسوة لا تبدأ دائماً من اليد. قد تبدأ من النظرة التي تُشعر اليتيم أنه أقل من غيره، ومن النبذة التي تذكّره بحاجته، ومن الكلمة التي تعيّرهِ بفقده، ومن تأخير حقه، ومن الاستيلاء على ماله، ومن جعله آخر الأطفال في الاهتمام وأولهم في اللوم.

وقد تكون دفعة الروح أقسى من دفعة الجسد.

هناك أيتام لا يضربهم أحد، لكنهم يعيشون كل يوم تحت إحساسٍ ثَقِيلٍ بأنهم ضيوفٌ غير مرغوب فيهم. يُعطون الطعام ولا يُعطون الألفة، ويُسمح لهم

بالسكن ولا يُمنحون معنى البيت. يقال لهم بطرقٍ كثيرة: أنتم هنا لأننا
تحمّلناكم، لا لأنكم منا.

وهذه قسوةٌ تعرف كيف تخفي يدها.

لماذا صار اليتيم دليلاً على التكذيب؟

قد يبدو الانتقال من قضيةٍ عقديّة كبرى - التكذيب بالدين - إلى معاملة طفلٍ
انتقالاً مفاجئاً، لكن هذا هو قلب الرؤية القرآنية: العقيدة ليست ما يقوله الإنسان
حين يُسأل عنها فقط، وإنما ما تقوله حياته حين يُمتحن.

الذي يؤمن بالله واليوم الآخر يعلم أن اليتيم ليس كائناً بلا سند، وإن بدا كذلك
في الأرض؛ فله ربٌّ يرى انكساره، ويحفظ حقه، ويسأل عنه. وإذا غاب أبوه،
فإن الله لم يغب. وإذا عجز عن الدفاع عن نفسه، فإن عجزه لا يسقط حرمة.

أما الذي يدعّه، فإنه يتعامل معه بحسب ميزان القوة الظاهر: هذا ضعيف،
إذن يمكن دفعه. لا أب له، إذن لا أحد يطالب بحقه. لا منفعة ترجى منه، إذن
لا موجب للإحسان إليه.

هذه المعادلة هي صورة عملية للتكذيب بيوم الدين؛ لأنها تجعل القدرة هي
مصدر الحق، وتتصرف كأن العالم لا يملك ميزاناً وراء موازين الناس.

إن الإيمان الحقيقي يعيد تعريف الضعف. لا يجعل الضعيف أقل كرامة، بل
يجعله أشد استحقاقاً للحماية. ولا يرى غياب المدافع فرصةً للبطش، بل يراه
استدعاءً للأمانة.

كلما نقصت قوة الإنسان، زادت مسؤوليتي تجاهه؛ لا لأنني أملك فضلاً ذاتياً عليه، بل لأن الله اختبر قوتي بضعفه.

اليتم لا يريد أن يعيش بوصفه قضية

من صور التقصير الخفية أن يُختزل اليتيم في حاجته، فلا يُرى فيه طفلٌ كامل المشاعر والأحلام، بل ملفٌ اجتماعي أو مناسبةٌ موسمية للعتاء.

يجتمع الناس حوله لحظةً، يلتقطون الصور، يقدمون الهدايا، ثم يعود إلى وحدته محملاً بإحساسٍ جديد: لقد صار حزنه مشهداً في احتفال الآخرين بفضيلتهم.

إن الرحمة التي تحفظ كرامة اليتيم لا تجعله منصةً لإعلان إحسانها. إنها تقترب منه بهدوء، وتمنحه حقه كما تمنحه الشعور بأنه ليس عبئاً، وتدخل الفرحة إلى حياته دون أن تضع فوق رأسه لافتةً تقول: هذا يтим.

فاليتيم يريد أن يلعب دون أن يراقب الناس لعبه بشفقة، وأن يخطئ دون أن يربطوا كل خطأ ببيته، وأن ينجح لأن له موهبةً وجهداً، لا ليقال إن المجتمع أحسن إليه. يريد أن يُعامل طفلاً قبل أن يُعامل محتاجاً.

والإكرام الحق لا يظل يذكر صاحبه بما أعطاه. اليد الكريمة تمحو أثرها بعد العطاء، حتى يبقى في قلب الآخذ معنى الكرامة، لا ثقل المنة.

إن بعض العطايا تسد حاجة الجسد وتجرح الروح. وبعض الكلمات لا تقدم مالاً، لكنها تمنح الإنسان إحساساً بأنه محفوظ المكانة. والقرآن حين ينهى عن

دعّ اليتيم لا يطلب فقط أن نوقف حركةً عنيفة، بل أن نبني حول هذا القلب الصغير فضاءً من الأمان.

اليتيم ومحنة المجتمع

تكشف طريقة التعامل مع الأيتام صورة المجتمع الأخلاقية. فالمجتمع لا يُقاس فقط بما يبنيه للأقوياء، بل بما يحفظه لمن فقدوا أسباب القوة.

قد تكون الشوارع واسعة، والمباني شاهقة، والخطب كثيرة، لكن طفلًا واحدًا يُؤكل ماله أو تُهان كرامته دون أن يجد من يحميه، يكشف صدعًا عميقًا في البناء كله.

الحضارة ليست ما يصنعه الأقوياء لأنفسهم، بل ما يضمنونه لمن لا يستطيعون المشاركة في صناعة القوة.

وإذا كان اليتيم لا ينال حقه إلا حين يجد واسطةً أو قريبًا ذا نفوذ، فالمشكلة ليست في فردٍ قاسٍ وحده، بل في ميزانٍ اجتماعي اختلّ حتى صار الحق محتاجًا إلى قوةٍ تحمله.

إن السورة لا تسمح للمجتمع أن يتعامل مع قهر اليتيم بوصفه خطأ شخصيًا محدودًا. إنها تصل هذا القهر بجذرٍ عقدي: (يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ). وبذلك ترفع حماية اليتيم من هامش الأعمال الخيرية إلى صميم الأمانة الدينية.

فليس إكرامه تفضلاً زائدًا يفعله من رقق قلبه ويتركه من لم يشأ، بل هو امتحانٌ لمقدار حضور الدين في الحياة.

حين تتخفى القسوة في ثياب التربية

قد يدع الإنسان اليتيم ثم يسمي قسوته تأديبًا. يحمله ما لا يحمل أبناءه، ويغفر لهم ما لا يغفر له، ثم يقول: أريد أن أجعله قويًا يعتمد على نفسه.

لكن القوة لا تُبنى بالإهانة، والاستقلال لا ينمو في تربة الشعور بالدونية. الطفل الذي يُقسى عليه لأنه بلا أب قد لا يصبح أقوى، بل قد يتعلم أن العالم مكان لا أمان فيه، وأن عليه أن يقسو قبل أن يُقسى عليه.

وهكذا تتناسل القسوة: يدفع الكبير الطفل، فيكبر الطفل وفي ذاكرته أن القوة تعني القدرة على الدفع، ثم يبحث عن أضعف منه ليعيد المشهد.

أما الرحمة فلا تفسد التربية، بل تمنحها أساسها الصحيح. يمكن أن يُعلم اليتيم النظام، وأن يُنبّه إلى الخطأ، وأن يتحمل المسؤولية، من غير أن يُجرّد من كرامته أو يُذكّر بفقده. فالعدل لا يعني إلغاء الحزم، وإنما يعني ألا يتحول الحزم إلى منفذٍ تتسرب منه قسوة القلب.

ومن علامات الإنصاف أن نسأل أنفسنا: لو كان أبوه حاضراً، هل كنا سنخاطبه بالطريقة نفسها؟ هل كنا سنؤخر حقه؟ هل كنا سنرفع صوتنا عليه؟ هل كنا سنجرؤ على إهانته؟

إذا غيّر غياب الأب أخلاقنا معه، فقد كشف اليتيم شيئاً فينا، لا فيه.

يدفعه لأن وجوده يذكره بواجبه

قد لا يكون اليتيم مزعجًا في ذاته، لكن حضوره يوقظ في القاسي مسؤولية يريد الهرب منها. إنه يذكره بأن في ماله حقًا، وفي وقته نصيبًا، وفي دفعه بيته مكانًا ينبغي أن يتسع. ولأن النفس الأنانية تكره من يوقظ واجباتها، فإنها لا تكتفي بإهمال المحتاج؛ بل قد تغضب منه لأنه جعلها ترى تقصيرها.

لهذا قد تكون قسوة بعض الناس على الضعفاء دفاعًا عن راحتهم الداخلية. فاليتيم بسؤاله الصامت يشقّ جدار اللامبالاة، والمسكين بوجهه المتعب يهدد طمأنينة الشبعان. ولكي تستعيد النفس راحتها، تحاول التخلص من الشاهد: تدفعه، أو تلومه، أو تتهمه، أو تقنع نفسها بأنه لا يستحق.

إنها لا تناقش حاجته، بل تبحث عن ذريعة تعفيها من الرحمة.

وهنا يصبح الدُعُّ أكثر من حركة يد؛ إنه محاولة لإخراج اليتيم من مجال الرؤية، حتى لا يبقى وجوده سؤالًا أخلاقيًا.

لكن القرآن يعيده إلى مركز المشهد، ويجعل اليد التي حاولت إبعاده دليل إدانة لصاحبها.

قوة لم تسجد

ما الذي يجعل يدًا تدفع طفلًا ضعيفًا؟

إنها قوة لم تتعلم السجود بعد، ولو كان صاحبها من المصلين. قوة تظن أن القدرة ترخيص، وأن من يستطيع الفعل يملك حقه. ولم تدرك أن كل زيادة في القدرة زيادة في الأمانة.

القوة المؤمنة لا تبحث عمّن تُشعره بسطوتها، بل عمّن تحميه بها. تعرف أنها عطية قابلة للزوال، وأن الله الذي جعلها في يد صاحبها قادرٌ على سلبها في لحظة. لذلك تلين حيث يبطش غيرها، وتتواضع حيث يستعرض الآخرون.

ليس الامتحان أن تكون رحيماً وأنت عاجز عن الأذى؛ فقد يكون عجزك هو الذي كفّ يدك. الامتحان أن تقدر ثم تمتنع، وأن تستطيع الدفع فتختار الاحتضان، وأن لا يخافك الضعيف رغم علمه بقوتك.

الرحمة ليست ضعف القدرة، بل أخلاق القدرة.

واليتيم يضع هذه الحقيقة أمام الإنسان في أنقى صورها: أنت أقوى منه، فماذا ستفعل بهذه الزيادة التي منحك الله إياها؟ أتجعلها جداراً يحميه، أم يدًا تدفعه؟

الجبر: الوجه المقابل للدع

إذا كان الدعُ دفعًا وإبعادًا، فإن الإكرام تقريبٌ وإيواء. وإذا كان الدعُ يزيد الكسر، فإن الرحمة جبر.

وجبر اليتيم ليس أن تعيد إليه أباه؛ فهذا خارج قدرة البشر. ولكنه أن تمنع غياب أبيه من أن يتحول إلى غيابٍ كامل للأمان. أن تقول له بأفعالك: فقدت سندًا عظيمًا، لكنك لم تفقد مكانك بيننا.

قد يكون الجبر كلمةً لا تحمل نبرة الشفقة الجارحة، أو مجلسًا لا يشعر فيه أنه زائد، أو سؤالًا صادقًا عن دراسته، أو دفاعًا عن حقه في غيابه، أو فرحًا بنجاحه، أو إنصافًا لخوفه دون استعجال.

إن بعض الجبر لا يحتاج إلى مال، بل إلى قلبٍ حاضر.

وقد تكون أعظم هدية لليتيم ألا تجعله يشعر أنك تهديه. أن يدخل الفرحة إليه في صورة حياةٍ طبيعية، لا في صورة إعلانٍ متكرر عن نقصه.

الجبر فن الرحمة حين تمتلك بصيرةً تحفظ للإنسان كرامته.

اليتيم الذي يسكننا

ومع بقاء المعنى الأصلي لليتيم واضحًا لا ينبغي إذابته في المجازات، إلا أن الآية توقظ فينا حسًا أوسع تجاه كل انكسارٍ لا يجد من يحميه. ففي داخل كثيرٍ من الناس موضعٌ يتيم: فقد قديم، أو خذلانٌ لم يُجبر، أو خوفٌ يسكن خلف الصمت.

قد تقابل إنسانًا بالغًا، قوي الهيئة، لكنه ما يزال يحمل في أعماقه طفلًا وقف يومًا أمام بابٍ ولم يُفتح له. وربما كانت قسوته نفسها قشرةً بناها حول ذلك الطفل حتى لا يُدفع مرةً أخرى.

وهذا لا يلغي مسؤوليته عن أفعاله، لكنه يجعلنا أكثر فهمًا لتعقيد النفس، وأكثر حذرًا من أن نضيف إلى كسور الناس كسرًا جديدًا.

العالم ممتلئ بأشخاصٍ لا يطلبون منا حل حياتهم كلها؛ يحتاجون فقط إلى ألا ندفعهم مرةً أخرى.

مرأة لا تجامل أحدًا

اليتميم مرآة القلب؛ لأنه لا يملك ما يشتري به لطفنا، ولا ما ينتزع به احترامنا. فإذا أكرمناه، كان في الإكرام قدرٌ من التجرد. وإذا قسوناه عليه، فقد ظهرت حقيقة القوة حين تنفصل عن الإيمان.

لكن السورة لا تريد منا أن نتأمل قسوة الآخرين وحدها. فالإنسان بارعٌ في العثور على المكذب بالدين خارج نفسه. يقرأ الآية، فتنزاحم في ذاكرته وجوه القساة، ولا يخطر له أن يسأل عن صورته الدقيقة من الدع:

كم مرةً أغلقنا الحديث في وجه ضعيف لأننا لا نحتاج إليه؟

كم مرةً قابلنا حاجة إنسان بنبرةٍ أشعرته أن سؤاله جريمة؟

كم مرةً تركنا صاحب حقٍ ينتظر لأننا عرفنا أنه لا يملك نفوذًا؟

كم مرةً كسرنا قلبًا ثم أقنعنا أنفسنا أننا كنا نربيّه أو نضعه عند حذّه؟

إن الدّع قد يبدأ قبل اليد. يبدأ حين تسقط حرمة الضعيف من القلب، ثم يبحث هذا السقوط عن صورةٍ يظهر بها: كلمة، أو نظرة، أو تأخير حق، أو تجاهل، أو دفع.

وإصلاح اليد يبدأ بإصلاح الرؤية. حين نرى اليتيم أمانةً لا عبئاً، وإنساناً لا ملفاً، وصاحب حقٍّ لا موضع مئة، تتغير نبرة الكلام قبل أن تتغير حركة اليد.

من الطفل الوحيد إلى المائدة الخالية

تضع الآية أمامنا يتيماً دُفع، ثم تنقلنا إلى مسكينٍ لم يجد من يحضّ على طعامه. في المشهد الأول قلبٌ يحتاج إلى الأمان.

وفي المشهد الثاني جسدٌ يحتاج إلى الطعام.

وهكذا تجمع السورة بين جوع الروح وجوع الجسد، وبين من فقد السند ومن فقد الكفاية. فالرحمة التي لا ترى إلا أحد الجوعين رحمةً ناقصة؛ قد تطعم الطفل وتترك كرامته جائعة، وقد تواسيه بكلمة جميلة وتنسى أن بطنه خاوٍ.

من هنا لا تقف السورة عند اليد التي دفعت، بل تمضي إلى مجتمعٍ كامل خمدت فيه حركة الحضّ. فالمشكلة ليست أن فرداً لم يعط، بل أن صوت الرحمة نفسه صار ضعيفاً، وأن الجائع تُرك وحيداً حتى في الكلام عنه.

بعد اليتيم نصل إلى المائدة.

لكنها ليست مائدةً عامرةً بالطعام؛ إنها مائدةٌ لها مكانٌ فارغ، ووراء ذلك المكان إنسانٌ لا يسأل السورة: لماذا لم تطعموني فحسب؟

بل يسألها سؤالاً أشدَّ وجعًا:

لماذا لم يشعر أحدٌ منكم أن جوعي يعنيه؟

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ).

الفصل الثالث

الجوع بوصفه سؤالاً أخلاقياً

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

بعد أن وضعت السورة أمامنا طفلاً فقد الأمان، تنقلنا إلى إنسانٍ فقد الكفاية. هناك يدُ تدفع اليتيم، وهنا مائدةٌ لا تصل إلى المسكين. وفي المشهدين قلبٌ واحد: قلبٌ يرى الضعف ولا يتحرك، كأن حاجة الآخرين تقع خارج حدود مسؤوليته.

لكن التعبير القرآني لا يقول: «ولا يطعم المسكين».

بل يقول: (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ).

وهذه الصياغة تفتح المعنى على مساحةٍ أوسع من صدقة فردية. فالمشكلة ليست يداً لم تعطِ فحسب، وإنما ضميرٌ لم يستيقظ، ولسانٌ لم يدعُ، ومجتمعٌ خفت فيه صوت التكافل حتى صار الجائع يواجه جوعه وحيداً.

إن الإنسان قد لا يملك ما يطعم به، لكنه يستطيع أن يحضّ من يملك، وأن يدلّ على المحتاج، وأن يوقظ الغافل، وأن يصنع من كلمته جسراً بين الفائض والحاجة. فإذا عجزت يده وسكت لسانه وبرد قلبه، فقد انقطعت منه طرق الرحمة كلها.

المسكين: إنسانٌ أسكنته الحاجة

في لفظ «المسكين» إحياءٌ بالسكون؛ كأن الحاجة أثقلته حتى قللت حركته، أو أسكنه الفقر عند حدودٍ لا يستطيع تجاوزها. يرى الحياة تمضي، والأسواق تمتلئ، والناس يعودون إلى بيوتهم بما اشتروا، لكنه يقف في موضعه، لا لأن له رغبةً في السكون، بل لأن العجز أمسك بخطاه.

ليس كل ساكنٍ راضيًا بمكانه.

قد يكون خلف صمته جهدٌ طويل لم يُثمر، ومرضٌ استنزف قدرته، ومسؤولياتٌ فاقت موارده، وأبوابٌ طرقها حتى أتعبته العودة منها. وقد يكون أكثر عفةً من أن يروي للناس تفاصيل فقره، فيحسبه من لا يعرفه غنيًا من التعفف.

إن الحاجة لا تحمل دائمًا لافتة.

ربما جلس المسكين إلى جوارك بثيابٍ نظيفة ووجهٍ يحاول الاحتفاظ بهدوئه، وفي بيته أطفالٌ تعلّموا ألا يسألوا عمّا لا يستطيع شراءه. وربما شارك الناس أحاديثهم وهو يحسب في داخله كم بقي حتى موعد الدين، وكيف سيقسم رغيًا واحدًا على أفواهٍ عدة.

للفقر وجهٌ لا يظهر في الصور: ارتباك الأب حين يطلب منه طفله شيئًا يسيرًا، ومحاولة الأم إقناع أبنائها بأنها لا تشتهي الطعام، والخوف من مرضٍ لا يوجد ثمن دوائه، والقلق من طرق الباب لأن الطارق قد يكون صاحب حقٍّ مؤجل.

الجوع ليس فراغًا في المعدة فقط؛ قد يكون شعورًا بانكماش الكرامة أمام الضرورة.

ولهذا لا يخاطب القرآن حاجته بوصفها شأنًا اقتصاديًا باردًا، بل يجعل موقف الناس منها جزءًا من صدقهم بالدين.

لماذا قال: ﴿طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾؟

لم تقل الآية: «ولا يحض على إطعام المسكين»، مع أن هذا المعنى مفهوم، وإنما قالت: ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾.

وفي إضافة الطعام إلى المسكين إحياءٌ دقيق بأن له فيه حقًا. ليس الطعام الذي يصل إليه فضلةً لا مالك لها، ولا منةً تمنحه إياها يد الغني من ملكها المطلق؛ إنه رزقٌ ساقه الله إليه، وجعل في مال القادرين طريقًا لوصوله.

حين تعطي المسكين، لا تخلق رزقه من العدم، وإنما تؤدي إليه شيئًا مرّ عبر يدك.

وهذا المعنى يطهر العطاء من الاستعلاء. فالذي يتصور أنه يمنح الفقير شيئًا لا حق له فيه قد يستكثر عطاءه، وينتظر الشكر، ويرى نفسه أعلى من الآخذ. أما من يعلم أن المال مال الله، وأنه مستخلف فيه، فإنه يعطي وهو يخشى أن يكون قد تأخر في أداء الأمانة.

إن المسكين لا يقف عند باب الغني ليقطع من حقه، بل ليتسلم حقًا جعل الله اختباره في يد أخيه.

ومن أجمل ما يصنعه هذا التصور أنه يبدل شعور الطرفين: فلا يُذل المحتاج، ولا يغتر المعطي. يأخذ الأول محفوظ الكرامة، ويعطي الثاني مستشعرًا فضل الله عليه إذ جعله موضع أداءٍ لا موضع حاجة.

نحن لا نملك النعمة بمعنى الاستقلال؛ نحن نعبر بها زمنًا قصيرًا، ثم نتركها أو نتركنا. وما نسميه ملكًا ليس إلا أمانة مؤقتة، تحمل داخلها أسئلة مؤجلة إلى يوم الدين: من أين جاءت؟ وفيم استعملت؟ ومن حُرِم منها مع قدرته على أداء حقه؟

الحضُّ: صناعة الضمير العام

الحضُّ ليس كلمةً عابرة، بل دفعٌ مستمر نحو الفعل، وإيقاظٌ للهمة، وتكوينٌ لمناخٍ أخلاقي يشعر فيه القادر أن جوع أخيه شأنٌ يعنيه.

إن السورة لا تريد أفرادًا يعطون في الخفاء فحسب، على عظمة ذلك، بل تريد مجتمعًا يتواصى بالألا يترك أحدًا خلفه. مجتمعًا يتحدث عن الجائع لا ليفضح حاجته، وإنما ليستنفر له الرحمة. فإذا فتر شخصٌ ذكَّره آخر، وإذا عجز بيتٌ حملته بيوت، وإذا حدثت مجاعةٌ لم تتحول المأساة إلى خبرٍ يمر بين أخبار الترف.

الحضُّ هو أن تبقى الرحمة يقظةً في المجال العام.

وقد يصمت الإنسان عن الدعوة إلى الإطعام لأنه لا يريد أن يُتهم بالتدخل، أو لأنه اعتاد الفقر حتى لم يعد يهزه، أو لأنه يخشى أن ينتقص إطعام المساكين من حصته. وقد يرى الحاجة واضحةً، لكنه ينتظر من يبدأ، فينتظر الآخرون

مثله، ويبقى الجائع وحده بين جماعة كل واحدٍ منها يظن أن المسؤولية تقع على غيره.

وهكذا تضيع الرحمة حين تُوزَّع المسؤولية حتى لا يحملها أحد.

أما القرآن فيخاطب كل ضميرٍ على حدة. لا يقول لك: هل حلت المؤسسة المشكلة؟ بل يسألك: ماذا فعلت أنت؟ فإن لم تملك الطعام، فهل حضضت عليه؟ وإن لم تستطع حمل العبء كله، فهل حملت طرفاً منه؟ وإن لم تعرف المحتاج، فهل بحثت عنه؟

إنك قد لا تكون قادراً على إشباع مدينة، لكنك قادرٌ على ألا تكون جزءاً من صمتها.

موت الرحمة مرتين

الذي لا يطعم مع قدرته قد ماتت الرحمة في يده، والذي لا يحضّ قد ماتت في لسانه. فإذا اجتمع المنع والصمت، ماتت في داخله مرتين.

فمن الممكن أن يبخل الإنسان بماله، ثم يبقى في قلبه شيءٌ من الحياء يجعله يحث غيره على الخير. وقد يعجز عن البذل، لكنه يتألم ويبحث ويشير إلى صاحب القدرة. أما الذي لا يعطي ولا يدعو إلى العطاء، فلا يبدو المسكين حاضراً في عالمه الأخلاقي أصلاً.

إن أخطر ما يصنعه الفقر بالمجتمع ليس وجود الحاجة وحده، بل تحولها إلى مشهدٍ عادي. أن يمر الناس بالجائع دون أن يشعروا أن شيئاً غير

طبيعي يحدث. أن تصبح الأجساد المنهكة جزءًا من خلفية المدينة، كما تصبح الجدران والحفر والطرق.

حينئذٍ لا يكون الجوع وحده هو الكارثة؛ بل القدرة على التعايش معه بلا ألم. القلب الحي لا يملك دائمًا الحل، لكنه لا يفقد انزعاجه. يعرف حدود استطاعته، إلا أنه لا يستخدم هذه الحدود ذريعةً للبلادة. قد يقدم القليل، أو يتكلم، أو يدل، أو يدعو، لكنه لا يعقد صلحًا داخليًا مع مأساة الجائع.

الخبز الذي يحمل معنى الكرامة

ليس الطعام مادةً تسد الجسد فحسب. في لحظة الجوع يصبح الرغبة رسالة: أنت مرئي، وحاجتك لم تُهمل، ولست وحدك في مواجهة الحياة.

وقد يتحول الرغبة نفسه إلى أداة إذلالٍ إذا قُدِّمَ بمنّةٍ أو فضيحة أو استعلاء. فليس كل إطعامٍ رحمة، كما أن كل كلامٍ لين ليس جبرًا. قد يعطي المرء المسكين، لكنه يأخذ مقابل عطيته شيئًا من كرامته، فيشبع بطنًا ويجرح روحًا.

والعطاء الذي يرضاه الإيمان لا يطلب من المحتاج أن يدفع ثمنه انحناءً لصاحبه.

إن اليد العليا ليست اليد التي تمنح المال متكبراً، بل اليد التي تستطيع أن تعطي وتحفظ للأخذ شعوره بأنه أخٌ لا تابع، وصاحب حقٍّ لا متسول على هامش الحياة.

وقد يحتاج حفظ الكرامة إلى بصيرةٍ أكثر مما يحتاج الإطعام إلى مال. أن تختار الوقت والطريقة، وألا تجعل الفقير مشهدًا، وألا تسأله أسئلة لا ضرورة لها، وألا تروي قصته لتزين بها سيرتك، وألا تذكره بعطيتك كلما اختلف معك.

فالذي يربط المعروف بطاعة الآخذ له لم يعطه الله؛ لقد اشترى بعطائه سلطةً عليه.

حين تصبح موائد الأغنياء عمياء

ليس موضع الإدانة أن يأكل الإنسان طعامًا طيبًا مما أحل الله، ولا أن يظهر أثر النعمة عليه شاكراً؛ وإنما الخلل أن يضيق وعيه حتى يرى مائدته ولا يرى الجائع القريب منها.

قد تمتلئ البيوت بألوان الطعام، ثم يُلقى الفائض في النفايات، وفي الجوار من يقسم القليل بين أطفاله. عندئذٍ لا تعود المسألة تفاوتًا في القدرة وحده، بل انفصالًا في الشعور: عالمٌ يملك أكثر مما يحتاج، وعالمٌ يحتاج أقل مما يُهدر، وبينهما جدارٌ صنعه اللامبالاة.

الإسراف ليس اعتداءً على المال فحسب، بل قد يكون إهانةً غير مباشرة لحاجة المحروم. فالطعام الذي لم نعد نراه نعمةً لشدة وفرته، قد يكون أمنيةً ينام عليها إنسان.

وليس المطلوب أن تتحول كل لقمة في فم الغني إلى شعورٍ بالذنب، بل أن تتحول النعمة إلى شكر، والشكر إلى مسؤولية، والمسؤولية إلى فعل. فالله لا يريد للإنسان أن يكره نعمته، وإنما أن يعرف حقها.

وحق النعمة أن تعبر منك، لا أن تنتهي عندك.

الفقر ليس تهمة

من القسوة أن يحمل المجتمع المسكين مسؤولية فقره دائماً، كأن كل محتاجٍ كسول، وكل فقيرٍ أخفق بإرادته، وكل من سأل فقد أساء التدبير.

نعم، قد يكون لبعض الفقر أسبابٌ مرتبطة بخيارات البشر، والعمل قيمةٌ لا يجوز إهدارها، لكن اختزال أحوال المحتاجين جميعاً في الكسل حيلةٌ نفسية تريح القادر من واجبه. فإذا أقنع نفسه بأن الفقير يستحق حاله، استطاع أن يمضي دون أن يسمع نداء ضميره.

كم من عاملٍ لم يكفه أجره، ومريضٍ ابتلعت نفقات العلاج مدخراته، وأسرةٌ فقدت عائلها، ونازحٍ ترك بيته، وصاحب مهنةٍ أغلقت الحرب سوقه، وإنسانٍ اجتهد ثم أدركته ظروفٌ أكبر من قدرته.

الفقر ليس دائماً قصة عجزٍ فردي؛ قد يكون قصة ظلمٍ عام، أو فسادٍ سياسي، أو احتكارٍ اقتصادي، أو حربٍ لم يخترها الجائع، لكنه دُفع إلى دفع ثمنها.

وحينئذٍ لا يكفي أن نقدم له لقمةً ثم نترك المصنع الذي ينتج الجوع يعمل بلا سؤال. الرحمة الحقيقية تطعم الجائع، والعدالة تسأل: لماذا جاع؟ ومن استولى على حقه؟ وكيف نمنع تكرار جوعه؟

فالصدقة تعالج الألم العاجل، والعدل يحاول أن يغلق الجرح الذي يولده. ولا تعارض بينهما؛ إذ لا يجوز أن نترك الجائع الآن بحجة أننا نبحث عن حلٍّ شامل، كما لا يجوز أن نكتفي بإبقائه حيًّا على حافة الفقر، ثم نسمي ذلك نظامًا رحيماً.

المجاعة ليست نقصاً في الطعام دائماً

قد يوجد الطعام ولا يصل إلى الجائع. وقد تمتلئ المخازن وتفرغ البطون؛ لأن الطريق بينهما قطعه الجشع والاحتكار والفساد والحرب.

في هذه الحال لا تكون المأساة أن الأرض لم تثبت، بل أن الضمير لم ينبت. ليست المشكلة في قدرة الطبيعة على العطاء، بل في قدرة الإنسان على المنع.

وقد يكون في البلد من الثروات ما يكفي أهله، لكن أفراداً يستأثرون بها، أو سلطةٌ تحول حاجة الناس إلى أداة ابتزاز، أو تجاراً يرفعون الأسعار في ساعة الضرورة، أو جماعاتٍ تتخذ المعونة طريقاً إلى شراء الولاء.

وهنا يتحول الطعام من حقٍ يحفظ الحياة إلى سلاحٍ يتحكم بها الأقوياء.

إن منع الغذاء عن الإنسان ليس مجرد ظلمٍ اقتصادي؛ إنه اعتداء على أصل بقائه. والذي يساوم الجائع على كرامته يعلم أن الجوع يضعف القدرة على الرفض، فيستغل لحظة انكسار الجسد ليكسر الإرادة.

وسورة الماعون، بكلماتها القليلة، تقف ضد هذا العالم كله؛ لأنها تجعل عدم الحظ على الطعام علامةً على التكريب بالدين، فكيف بمن يحتكر الطعام، أو يسرقه، أو يجعل وصوله مشروطاً بالخضوع؟

الحاجة إلى من يدلّ

قد يوجد محسنٌ يريد العطاء، ومسكينٌ يحتاج إليه، لكن كلاّ منهما لا يعرف الآخر. هنا يكون الحظّ دلالةً وأمانة.

إن بعض الناس لا يملكون المال، لكنهم يملكون المعرفة بحال الأسر، والقدرة على التحقق من الحاجات، والثقة التي تجعل القادرين يطمئنون إلى وصول عطائهم. هؤلاء يصنعون طرقاً للرزق، وقد يكون جهدهم في الوصل لا يقل أثراً عن المال نفسه.

لكن هذا المقام يحتاج إلى نزاهة. فحاجة الفقير سرٌّ لا مادةً للتداول، وأسماء المحتاجين ليست وسيلةً لبناء المكانة الاجتماعية. من يتوسط لهم ينبغي أن يحمل قصصهم برفق، وألا يحولها إلى أخبار، وألا يقطع من كرامتهم ما يثبت به نشاطه.

إن الدال على الخير لا يقف بين المعطي والأخذ ليكون مركز المشهد، بل يفتح الطريق ثم يتنحى.

فالرحمة كلما اقتربت من الإخلاص خفّ ضجيجها.

الجوع الذي يسلب العقل راحته

الجائع لا يفكر كما يفكر الشعبان. الألم المتكرر يضيق مساحة الوعي، ويجعل اليوم كله يدور حول سؤالٍ بدائي: من أين تأتي الوجبة القادمة؟

وقد يطلب المجتمع من الفقير أن يقرأ ويبدع ويخطط لمستقبله، بينما جسده يستغيث بما يحفظ الحاضر. يطالبه بالصبر، ولا يمنحه ما يعينه عليه. يعظه بالقناعة من مكانٍ دافئ، ثم يعود إلى مائدته مطمئناً.

من السهل أن نتحدث عن فضائل الاحتمال حين لا تمتحننا الحاجة.

ولا يعني هذا أن الفقر يسلب الإنسان كرامته أو قدرته على السمو؛ فقد خرج من بيوت الفقراء من حملوا من العلم والإيمان والخلق ما لم تحمله القصور. لكن تمجيد صبر الفقير لا يجوز أن يتحول إلى ذريعةٍ لإبقاء الظلم. فالصبر فضيلته هو، وإطعامه واجب القادر، ولا يملك القادر أن يلزمه بفضيلة الصبر ليتحلل هو من واجب الرحمة.

ليس من حق الشعبان أن يجعل جوع غيره مدرسةً للأخلاق، ثم يرفض أن يغلق أبوابها.

المجتمع الذي يحضّ على الشبّع لنفسه

كل مجتمع يملك منظومةً للحض، وإن لم يسمها كذلك. الإعلانات تحضّ على الاستهلاك، والمنافسة تحضّ على الظهور، والثقافة السائدة تحضّ على امتلاك المزيد. لكن السؤال: مَنْ يحضّ على طعام المسكين؟

قد تصنع المجتمعات رغباتٍ جديدة للأغنياء أسرع مما تسد الحاجات القديمة للفقراء. يُفنع الإنسان بأنه يحتاج إلى نسخة أحدث من كل شيء، بينما لا يجد غيره النسخة الأولى من ضروريات الحياة.

هنا لا يعود الفقر مجرد نقصٍ في موارد فرد، بل نتيجةً لترتيبٍ أخلاقي يجعل الكماليات أعلى صوتًا من الضرورات. فالسوق يعرف كيف يثير شهية القادر، لكن الوحي يريد ضميرًا يعرف كيف يسمع جوع العاجز.

وكلما علا ضجيج الاستهلاك، ازدادت حاجتنا إلى صوت الحض على الرحمة؛ صوتٍ يذكرنا بأن قيمة الإنسان ليست فيما يكس، وأن المال الذي لا يصنع خيرًا قد يملأ المخزن ويترك القلب فارغًا.

من الجوع الفردي إلى المسؤولية الجماعية

صيغة الحضّ تعني أن الإطعام لا ينبغي أن يبقى مبادراتٍ متفرقة مرتبطة بمزاج الأفراد. لا بد أن يتحول إلى وعيٍ جماعي، ونظامٍ يحفظ للناس حد الكفاية، ومؤسساتٍ أمينة تصل إلى المحتاج دون إذلال.

فالرحمة الفردية عظيمة، لكنها قد تعجز عن مواجهة فقر صنعته بنية كاملة. والجائع لا ينبغي أن تبقى حياته معلقة بمصادفة أن يمر به محسن رقيق القلب. إن المجتمع المؤمن لا يترك الضعفاء للصدف.

يبني من الزكاة والصدقات والأوقاف والتكافل والعمل العادل شبكة تحمي الإنسان من السقوط خارج الحياة. ويجعل السؤال عن الجائع جزءاً من مسؤولية الحكم والعلم والدعوة والمال، لا شأنًا موسميًا يستيقظ في أوقات محدودة ثم ينام.

ليس المطلوب فقط أن نملاً طبقاً، بل أن نبني ضميراً لا يسمح ببقائه فارغاً.

بين اليتيم والمسكين

اليتيم قد يملك مالا لكنه فقد الحماية، والمسكين قد يملك أسرة لكنه فقد الكفاية. لذلك جمعت السورة بينهما؛ لتقول إن الرحمة لا تنظر إلى نوع واحد من الحرمان.

هناك من يحتاج إلى المال، ومن يحتاج إلى السند، ومن يحتاج إليهما معاً. والبصيرة هي أن نعرف طبيعة الجوع قبل أن نقدم الطعام الخطأ.

قد تقدم للإنسان نصيحة وهو يحتاج إلى إنصاف.

وقد تمنحه مالا وهو يحتاج أيضاً إلى احترام.

وقد تعظه بالصبر وهو يحتاج إلى أن ترفع عنه ظلماً.

وقد تدعوه إلى العمل بينما الأبواب كلها مغلقة في وجهه.

ليست الرحمة أن تعطي ما تريد أنت، بل أن تفهم ما يحتاج إليه هو.

وهكذا تكمل الآيتان إحداها الأخرى: لا تدفع القلب المكسور، ولا تترك الجسد الجائع. احفظ كرامة الإنسان، واحفظ حياته.

المفاجأة القادمة من المحراب

لو توقفت السورة هنا، لظن القارئ أن الحديث انتهى عن شخصٍ قاسٍ بعيدٍ عن العبادة، رجلٍ أنكر الدين، فدفع اليتيم وأهمل المسكين. ولربما اطمأن المصلّي إلى أنه خارج دائرة الخطاب.

لكن السورة لا تمنحه هذا الاطمئنان.

فبعد مشهد الطفل المدفوع، والمسكين الذي لم يجد من يحضّ على طعامه، ينفتح باب المحراب. نرى رجلاً واقفاً يصلي. نظن أن السياق انتقل إلى الطرف المقابل، وأنا أمام نموذج الإيمان بعد نموذج التكذيب.

غير أن العبارة تهبط كصاعقةٍ على هذا الظن: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ).

هنا تبلغ السورة منعطفها الأعظم. فالقسوة ليست دائماً خارج المسجد، والتكذيب لا يظهر دائماً في ترك الشعائر، والصلاة قد تبقى في حياة الإنسان بينما ينسحب معناها من قلبه.

لقد كان اليتيم عند الباب، والمسكين قرب المائدة، والآن نقف أمام المصلّي في المحراب.

وسيكون السؤال أشد رهبة:

كيف يمكن للإنسان أن يضع جبهته على الأرض لله، ثم يرفعها وقد بقي في قلبه متسعٌ لدفع اليتيم، ونسيان المسكين، وانتظار ثناء الناس؟

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ).

الفصل الرابع

حين تدخل القسوة إلى المحراب

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

تصل السورة إلى هذه الآية فتتغير نبرة المشهد كله: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ).

عبارة قصيرة، لكنها تهزّ القلب قبل أن يستكمل شروطها. فالذهن كان ينتظر وعيداً للذين تركوا الصلاة، أو أعرضوا عن الدين، أو جأهروا بالتكذيب، فإذا بالوعيد يقترب من صفوف المصلين أنفسهم.

وهنا لا يعود القارئ واقفاً خارج النص يشاهد رجلاً قاسياً يدفع اليتيم، بل يجد نفسه داخل دائرة السؤال. فالصلاة التي ظنّها وحدها مسافة أمان، تصبح موضع فحص: ما حقيقتها؟ أين تقف في القلب؟ ولمن تُودى؟ وماذا تصنع في صاحبها؟

إن الآية لا تذم الصلاة، وإنما تذم صلاةً أفرغت من معناها حتى صارت جسداً بلا روح، وحضوراً في المكان مع غيابٍ عن العهد، ومشهداً يراه الناس أكثر مما يراه صاحبه طريقاً إلى الله.

فالوعيد ليس للمصلين لأنهم صلّوا، بل لأنهم لم يعطوا الصلاة حقها، ولم يحفظوا سرّها، ولم يدعوا نورها يعبر من المحراب إلى الحياة.

كَلِمَةٌ ثَقِيلَةٌ: (فَوَيْلٌ)

«الويل» كلمة وعيدٍ شديد، تحمل معنى الهلاك والعذاب والخسران. واختيارها هنا يكشف أن المسألة ليست نقصاً تجميلياً في العبادة، ولا خطأً يسيراً لا وزن له، بل فسادٌ يمسّ أصل العلاقة بالصلاة.

إن الله غنيٌّ عن الحركات التي لا يُراد بها وجهه، وعن الكلمات التي ينطق بها اللسان بينما القلب معلقٌ بعيون الناس. وهو سبحانه لا تخدعه الهيئة، ولا تختلط عليه الطاعة الصادقة بالمشهد المصنوع؛ يعلم أين يتجه القلب وإن استقبل الجسد القبلة، ويعلم ما الذي يطلبه العبد من صلاته وإن مدحه الناس بخشوعها.

ولأن الصلاة أعظم شعائر الإسلام العملية، كان العبث بحقيقتها شديد الخطر. فالرياء فيها ليس مجرد خللٍ في صورة الفعل، بل تحويلٌ لوجهته؛ والسهو عنها ليس هفوةً عارضة، بل استهانةٌ بالعهد المتكرر بين العبد وربّه.

الويل هنا جرس إنذارٍ داخل بيت العبادة نفسه.

إنه يقول للمصلّي: لا تأمن لمجرد أنك تقف، حتى تنتظر لماذا وقفت. ولا تطمئن إلى انحناء ظهرك، حتى تسأل هل انحنى كبرك. ولا تكتفٍ بسجود جبهتك، حتى ترى ما إذا سجدت معك أهواؤك أم ظلت منتصبَةً في الداخل.

الصلاة ليست المتهمة

حين تُقرأ الآية مقطوعةً عن وصف من بعدها، قد يلتبس معناها على من لا يتدبر سياقها. لكن القرآن يوضح أن الوعيد لصنفٍ مخصوص من المصلين: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ).

فالصلاة ليست سبب هلاكهم، بل ما صنعوه بها. لقد نقلوها من مقام الصلاة بالله إلى ميدان الغفلة والرياء. حافظوا على شيءٍ من شكلها، لكنهم خذلوا حقيقتها.

والفارق كبير بين من تقصر به بشريته وهو يعظم الصلاة، فيندم ويعود، وبين من تصبح الصلاة على هامش حياته، لا يبالي أضاع وقتها أم أداها، ولا ينشط لها إلا حين يراه الناس.

الأول عبدٌ يجاهد ضعفه.

والثاني اتخذ العبادة جزءاً من صورته.

ولا تساوي السورة بينهما؛ لأن الله يعلم اضطراب القلوب وصدق المجاهدة. قد يسرح الإنسان في صلاته ثم ينتبه ويحزن، وقد تفوته الخشية التي طلبها فيحاول من جديد. هذا النقص البشري ليس هو الرياء المستقر ولا السهو الذي يستهين بالصلاة.

إن الآية لا تغلق باب الرجاء أمام المتعبدین، بل تغلق باب الخداع أمام المتلاعبين.

حين تبقى هيئة الصلاة ويغيب سلطانها

للصلاة هيئة ظاهرة: قيام وقراءة وركوع وسجود. ولها حقيقة باطنة: تعظيم وافتقار وإخلاص وخشية.

ولا تستغني الحقيقة عن الهيئة، كما لا تكفي الهيئة إذا عزلت عن الحقيقة. فنحن مأمورون أن نصلي كما شرعت الصلاة، بأوقاتها وأركانها وشروطها، لا وفق مشاعر عائمة. لكن هذه الأفعال المشروعة ليست حركات آلية؛ إنها لغة الجسد في مقام العبودية.

حين تقف، فأنت تعلن أنك عبدٌ مائلٌ بين يدي ربه.

وحين تركع، فأنت تعترف أن العظمة لله.

وحين تسجد، تضع أشرف موضعٍ في جسدك على الأرض، لتسقط أوهام الاستعلاء من داخلك.

وحين تقول: «الله أكبر»، فإنك لا تتنطق بوصفٍ مجرد، بل تعيد ترتيب الأشياء في قلبك: الله أكبر من خوفك، ومن شهوتك، ومن مالك، ومن صورتك عند الناس، ومن كل قوةٍ أغرتك أن تظلم.

فإذا بقيت الحركات وغابت هذه المعاني، كانت الصلاة كرسالةٍ محفوظة الألفاظ لم تصل إلى عنوانها.

والخطر أن يعتاد المرء الصورة حتى يظن أنها الحقيقة كلها. يطمئن لأنه أتم عدد الركعات، ولا يسأل عما انتهت إليه في قلبه. يحصي صلواته، لكنه لا يحصي ما أسقطته من كبره، ولا ما أحيتته من رحمة، ولا ما قاومته من رياء.

إن صحة الصلاة من جهة الأحكام بابٌ له ضوابطه الفقهية، وأثرها القلبي والأخلاقي بابٌ آخر لا يجوز إهماله. وقد يؤدي الإنسان الفرض أداءً صحيحاً في الظاهر، لكنه يفوت من روحه وثمرته بقدر غفلته وإخلاصه.

والسورة توقظه قبل أن يتحول الحد الأدنى من الأداء إلى حدٍّ أقصى من الطموح.

كيف دخل اليتيم إلى الصلاة؟

قد يبدو اليتيم بعيداً عن المحراب، لكن السورة تضعه في قلب السؤال عن الصلاة. فالذي ركع لله ثم دفع اليتيم لم يفهم بعد ما قاله جسده وهو راكع. والذي سجد ثم استعلى على المسكين حمل هيئة التواضع إلى الأرض، لكنه أبقى قلبه مرتفعاً على عباد الله.

الصلاة تعلم الإنسان أن يقف في صفٍّ لا يميّز فيه الغني عن الفقير. تتجاوز الأكتاف، وتتساوى الجهات، ويصير الجميع عباداً أمام ربٍّ واحد. لا يتقدم صاحب المال لأن ماله أكثر، ولا يتأخر اليتيم لأن أباه غاب، ولا يُقصى المسكين لأن ثوبه أقل ثمناً.

فإذا خرج المصلّي من هذا الصف ثم أعاد بناء الجدران التي أسقطتها الصلاة، فقد رأى المساواة بعينه ولم يسمح لها أن تبلغ ضميره.

لقد وقف إلى جوار الفقير في المسجد، لكنه لم يشعر بجوعه خارج المسجد.

قال معه: «ربنا ولك الحمد»، ثم لم يرَ في نعمته حقاً لذلك الأخ.

سَلَّمَ عن يمينه وشماله، ثم خرج ولسانه أو يده مصدر أذى لمن سَلَّمَ عليهم.

إن الصلاة لا تنتهي عند كلمة التسليم؛ هناك يبدأ امتحان ما تعلّمته فيها.

المحراب الذي لا يفتح بابه للطريق

بعض الناس يجعل العبادة غرفةً مغلقةً داخل حياته. يدخلها وقت الصلاة، يؤدي ما اعتاده، ثم يغلق بابها ويعود إلى عالمٍ تحكمه قيمٌ أخرى: المصلحة، والغلبة، والسمعة، والعصبية، والمال.

فله في المسجد أخلاق، وفي السوق أخلاق أخرى.

له عند التلاوة قلبٌ رقيق، وعند الخصومة لسانٌ لا يعرف حدود الله.

يتحدث عن الزهد وهو ينازع على أصغر حظوظ النفس، ويبكي من أخبار الصالحين ثم يقسو على إنسانٍ حيٍّ يقف أمامه.

هذا الانقسام هو الذي تواجهه سورة الماعون. إنها تفتح باب المحراب على الطريق، وتُدخل اليتيم والمسكين في سؤال العبادة، وتمنع المصلّي من أن يعزل حق الله عن حقوق عباده.

وليس معنى هذا أن العبادة تُقبل لمجرد حسن الخلق مع الخلق؛ فالإيمان بالله وإخلاص العبادة له أصلٌ لا يقوم مقامه عمل اجتماعي. لكن العبادة الصادقة

ينبغي أن تترك في صاحبها أثرًا. فإذا لم يظهر الأثر، وجب عليه أن يفتش عن موضع الانقطاع بين صلاته وقلبه.

المحراب الذي لا يفتح بابه للحياة قد يتحول إلى مخبأ تهرب إليه النفس من مسؤوليتها، بدل أن يكون منبعًا للقوة التي تنهض بها.

التدين بوصفه حصانة زائفة

قد يظن بعض الناس أن كثرة العبادة تمنحهم حصانة أخلاقية، فلا يقبلون نقد سلوكهم، وكأن صلاح الظاهر يمنع احتمال الظلم. فإذا قيل لأحدهم: قسوت على ضعيف، أجاب بما يؤديه من الطاعات. وإذا ذُكر بحق إنسان، تحدث عن سابقته في الدعوة أو مكانته بين الصالحين.

لكن الحسنات لا تتحول إلى إذنٍ مفتوح للإساءة.

والعبادة التي تجعل صاحبها يرفض الاعتراف بخطئه تحتاج إلى مراجعة؛ لأن من أعظم آثار الوقوف بين يدي الله أن يعرف الإنسان نقصه، لا أن يصنع من صلاته سورًا يحمي به كبريائه.

قد يكون الرجل من أهل الصف الأول، لكنه يظلم في بيته.

وقد يطيل الدعاء، لكنه يؤخر أجره العامل.

وقد يخشع صوته في التلاوة، ثم يرتفع على الضعفاء.

وقد يتحدث عن السنة، لكنه لا يرى بأسًا في أكل مال يتيم.

وسورة الماعون لا تزن الإنسان بموقعه في الصف وحده، بل تسأل عن موقع الصلاة منه.

هل دخلت إليه، أم بقي هو خارجها رغم حضور جسده فيها؟

ليست الصلاة تعويضاً عن الظلم

من أخطر الأوهام أن يتصور المرء أن بإمكانه موازنة ظلم الناس بكثرة النوافل، كأن الحسنات أرقام يضعها في كفةٍ ليحتفظ في الكفة الأخرى بما يشاء من الحقوق.

لكن حقوق العباد ليست هامشاً يمحوه إحساسٌ ديني جميل. من أكل مألًا وجب عليه رده، ومن انتهك كرامةً لزمه التوبة والتحلل بقدر ما يحقق الشرع والمصلحة، ومن ظلم إنسانًا لا يكفيه أن يطيل السجود وهو مصرٌّ على إبقاء الظلم.

إن الصلاة الصادقة تدفعه إلى الإصلاح؛ لأنها تضعه مرارًا أمام الله الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرّمًا.

أما أن يتخذ الصلاة مكانًا يسكن فيه ألم الضمير دون أن يردّ الحق، فذلك استخدامٌ للعبادة في حماية الخطيئة.

قد يبكي الظالم في سجوده، لكن أول علامات صدق دمه أن تتغير يده حين تقدر، وأن يعود الحق إلى صاحبه، وأن ينكسر فيه شيءٌ من الاستعلاء الذي قاده إلى الأذى.

السجود ليس ستارًا نختبئ خلفه من المظلوم، بل قوةٌ تدفعنا إلى الوقوف أمامه بشجاعة الاعتراف والإنصاف.

الصلاة مدرسة التحرر من الجمهور

كل يومٍ تستدعي الصلاة الإنسان من عالمٍ تمتلئ فيه العيون والأصوات إلى لقاءٍ أصله الخلوص لله. حتى لو صلى في جماعة، فإنه يقف بقلبه بين يدي ربٍ يعلم السر وأخفى.

لا يحتاج الله إلى أن يرفع المصلي صوته ليعلم صدقه، ولا إلى صورةٍ تثبت قيامه، ولا إلى جمهورٍ يشهد طول سجوده. الله يعلم ارتجافة القلب التي لم يرها أحد، ويعلم المجاهدة الصامتة التي لا يصفق لها الناس.

لهذا كانت الصلاة مدرسةً كبرى في التحرر من الجمهور. تعلم الإنسان أن قيمته لا تتوقف على أن يراه الخلق، وأن أعظم لحظاته قد تكون تلك التي لا يعلم بها أحد.

لكن المرائي يقلب وظيفة الصلاة. بدل أن تحرره من أعين الناس، يجعلها وسيلةً لجذب أعينهم. وبدل أن يدخلها ليغيب عن صورته، يدخلها ليصقلها. فيصبح العمل الذي شرع لتوحيد الوجهة مجالاً لتعدد الوجهات.

يقول بلسانه: «وجهت وجهي»، لكن قلبه موزعٌ بين الله ونظرات الناس.

وهنا تكون المأساة أعمق من حب المديح؛ إنها فقدان القلب لقبولته الخفية.

من يصلي لمن؟

هذا هو السؤال الذي تخبئه الآية وراء الوعيد.

ليست القضية فقط: هل صليت؟

بل: لمن صليت؟

قد تتشابه الحركات، لكن المسافة بين الصلاتين أبعد من المسافة بين السماء والأرض. رجلان يقفان في صفٍ واحد، يركعان معًا ويسجدان معًا؛ أحدهما ينسى العالم لأنه وجد نفسه في مقام العبودية، والآخر يراقب العالم من طرف قلبه ليتأكد أنه شاهده.

الأول خرج من ذاته إلى الله.

والثاني استخدم اسم الله ليعود إلى ذاته أكبر في أعين الناس.

ولا يملك البشر القطع بسرائر المصلين؛ فالقلوب إلى الله، ولا يجوز لنا اتهام الناس بغير بيّنة. لكن كل إنسان يملك أن يسأل قلبه، وأن يراقب تغير نشاطه بين الخفاء والظهور، وأن يخاف من لذة الثناء حين تتسلل إلى العبادة.

الإخلاص ليس دعوى أخرى نعلنها، بل مجاهدةً طويلة نخفف بها حضور الناس في القلب حتى لا يبقى للعمل مطلوبٌ أعظم من رضا الله.

حين تصبح الصلاة عادةً اجتماعية

قد ينشأ الإنسان في بيئة يصلي فيها الجميع، فيتعلم الحركات منذ طفولته، وهذا فضلٌ عظيم. لكن الاعتياد يحمل خطرًا إذا لم يصحبه تجدد الوعي؛ فقد تتحول الصلاة من اختيارٍ تعبدي حيٍّ إلى جزءٍ من انتظام اليوم، يؤديها الجسد كما يؤدي أفعالًا كثيرةً رسخت بالترار.

والعادة في ذاتها تعين على الثبات، وليست مذمومة؛ لكن الخطر أن تستغني عن النية، وأن يمر المصلي على الكلمات دون أن يسمعها، وعلى السجود دون أن يشعر بما يعلنه.

يصلي لأنه اعتاد أن يصلي، أو لأن المجتمع يتوقع منه ذلك، أو لأن تركها يضر صورته، لا لأن قلبه استجاب للنداء.

وحينئذٍ يزداد حضور الجسد بينما يتناقص حضور المعنى.

وعلاج ذلك ليس ترك العادة الصالحة، بل إعادة الروح إليها: أن يتوقف الإنسان قبل التكبير لحظة، فيعرف إلى أين يدخل؛ وأن يتأمل ما يقرأ؛ وأن ينظر إلى كل صلاة بوصفها لقاءً جديدًا، لا نسخةً ميكانيكية من لقاءٍ سابق.

فالطريق إلى حضور القلب يبدأ أحيانًا من كسر سرعة الجسد.

الصلاة التي تصنع إنساناً

ماذا تصنع الصلاة حين تدخل القلب حقاً؟

تعيد الإنسان من تشنته إلى مركزه. تذكره بأنه عبد، فتسقط عنه أوهام السيادة المطلقة. تجعله يقرأ الفاتحة، فيرى نفسه فرداً داخل جماعة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، لا «إياك أعبد» وحدي؛ و«اهْدِنَا»، لا «اهدني» وحدي. حتى مناجاته الشخصية تحمل الآخرين معه.

ثم يركع، فيتعلم أن العظمة ليست له.

ويسجد، فيقترب من ربه من موضع التواضع.

ويسلم، فينهي صلاته بإفشاء السلام عمّن حوله.

إن كل حركة فيها تعيد تربية علاقته بالذات والخلق. فإذا استقرت معانيها، خرج أقل غروراً، وأكثر إحساساً بالناس، وأشد مراقبةً لله.

لا يعني ذلك أن كل مصلٍّ سيبلغ الكمال، وإنما يعني أن الصلاة تضعه كل يوم على طريق الإصلاح. وكلما انحرف أعادته، وكلما غفل نادته، وكلما تضخمت ذاته وضعت جبهته على التراب.

الصلاة لا تصنع ملاكاً لا يخطئ، بل تصنع إنساناً لا يطمئن إلى خطئه.

القسوة التي قاومت الصلاة

إذا بقيت القسوة بعد سنوات من الصلاة، فليس الحل أن نزهد في الصلاة، بل أن نفتح لها أعماق الأبواب. لعلها ظلت عند السطح، تؤدي بالأعضاء ولم تجد طريقها إلى موضع الداء.

فالماء لا يُلام إذا بقي الوعاء مغلقاً.

والنور لا يعجز عن الكشف، لكننا قد نبني بينه وبين داخلنا حجباً من العادة والرياء والعجلة.

علينا أن نسأل بعد كل صلاة: هل صرت أقدر على مقاومة الظلم؟ هل رُقّ في موضعٍ كان قاسياً؟ هل تضاءلت حاجتي إلى مديح الناس؟ هل صرت أسرع إلى الاعتذار وأبطأ في الإيذاء؟ هل جعلني افتقاري إلى الله أكثر فهماً لافتقار المحتاج؟

ليست هذه الأسئلة شروطاً جديدة لصحة الصلاة، لكنها مرايا نرى فيها مقدار انتفاعنا بها.

وقد يكون من علامات حياة الصلاة أن تجعلنا نرى تقصيرنا بوضوح أكبر. فالذي يقترب من النور لا يزعم أنه صار كاملاً؛ بل يرى الغبار الذي لم يكن يراه في الظلمة.

المصلي الذي يقف في قفص الاتهام

عند قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾، لا يكون المقصود أن يتحول المؤمن إلى وسواس لا يرجو قبول عمل، وإنما أن يفقد ذلك الاطمئنان الساذج الذي يجعله يكتفي بالاسم.

الآية تضع المصلي في موضع المحاسبة، لا في موضع اليأس. تقول له: صلاتك أعظم من أن تؤذيها بلا قلب، وربك أجل من أن تجعل عبادته طريقاً إلى الناس، وحياتك أقصر من أن تقضيها في تكرار حركات لا تسمح لها أن تغيرك.

الخوف الصحيح لا يطردك من المحراب؛ بل يعيدك إليه أكثر صدقاً.

ولا يجعلك تحتقر صلاتك؛ بل يجعلك تعظمها حتى لا ترضى لها أن تكون عادةً جوفاء.

ولا يدعوك إلى مراقبة المصلين؛ بل إلى مراقبة قلبك.

إن الإنسان إذا قرأ الآية منشغلاً بالبحث عن المرائين بين الناس، فقد وجد لنفسه مهرباً جديداً. أما إذا قرأها وهو يسأل: كم من صلاتي كان لله؟ وكم سرقة الغفلة؟ وهل يتغير نشاطي بحضور العيون؟ فقد بدأ يسمع السورة.

من الوعيد المجمل إلى كشف الصفات

تأتي الآية شديدةً مجملة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.

ثم لا تترك القلب في حيرة، بل تصف من استحقوا الوعيد: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

تأمل أنها لم تقل: «في صلاتهم ساهون»، فالسهو داخل الصلاة يعرض للمؤمن، وقد عرض للبشر، وشُرِعَ له سجود السهو. وإنما قالت: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾؛ فكان الصلاة قائمةً في موضع، وهم غائبون عنها، لا يحملون همّها، ولا يبالون بوقتها، ولا يقيمون لها وزنها إلا حين تستدعيها صورتهم أمام الناس.

وقد يكون الإنسان داخل الصلاة بجسده، لكنه ما يزال ساهياً عنها بمعناها. يسمع الكلمات دون أن تدخل، ويؤدي العهد دون أن يحمله إلى الحياة.

هنا ننتقل من القسوة التي دخلت المحراب إلى الغياب الذي استوطن الصلاة.

وليس السؤال القادم: كيف نمنع خاطر العابر من المرور في أذهاننا؟

بل السؤال الأعمق:

كيف يحضر الجسد في الصلاة، بينما تبقى الحياة كلها غائبةً عن معناها؟

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

الفصل الخامس

السهو عن روح الصلاة

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

لم تقل الآية: «الذين هم في صلاتهم ساهون».

بل قالت: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

وهذا الفرق الصغير في المبنى يفتح فرقًا كبيرًا في المعنى.

فالسهو في الصلاة عارضٌ بشري؛ تسرح النفس، ويمر خاطر، وينسى المصلي عدد الركعات، ثم ينتبه ويجبر سهوه بما شرع الله.

أما السهو عن الصلاة فهو غيابٌ عن شأنها، وتضييعٌ لمكانتها، وانفصالٌ عن غايتها، حتى تصبح في حياة الإنسان شيئًا مؤجلًا لا يحمل همّه، أو مظهرًا يستدعيه عند الحاجة إلى الظهور.

الساهي في صلاته يحاول أن يعود إليها.

أما الساهي عنها، فقد لا يشعر أنه غادرها أصلًا.

الأول يؤلمه شروده، والثاني لا يعنيه ضياعها.

الأول تغلبه بشريته، والثاني استقرت في داخله اللامبالاة.

ومن عدل القرآن أنه لا يجعل الضعف العارض في منزلة الإعراض المستمر، ولا يساوي بين قلبٍ يجاهد ليستحضر ربه وقلبٍ لا يرى للصلاة قدرًا إلا بقدر ما تصنعه له في عيون الناس.

حين تكون الصلاة حاضرةً في الجدول غائبةً عن القلب

قد يحتفظ الإنسان بمواعيد الصلاة، لكنه لا يحتفظ بمعناها. يؤديها في وقتها عادةً، ثم لا يبقى منها في ضميره إلا أنه أنهى واجبًا ينتقل بعده إلى بقية شؤونه.

تأتي الصلاة وتذهب، ولا يحدث في الداخل شيء.

لا سؤال، ولا مراجعة، ولا تجدد للعهد، ولا شعور بالوقوف بين يدي الله.

وحين تتكرر العبادة دون حضور، قد يتكون أخطر أنواع الغياب: الغياب الذي يشبه الحضور. فصاحبه لا يشعر بفقد الصلاة لأنه يؤدي صورتها، ولا يبحث عن روحها لأنه يظن أن ما معه هو الصلاة كلها.

من يفقد شيئًا ويعرف أنه فقدته قد يبحث عنه، أما من فقد المعنى واحتفظ بالاسم فيصعب عليه أن يشعر بالخسارة.

ولهذا كان الاعتقاد نعمةً تحتاج إلى يقظة. فهو يحفظ العمل من الانقطاع، لكنه قد يغطيه بقشرة المألوف حتى لا يعود القلب يندهش من عظمته.

أيّ أمرٍ أعظم من أن يؤذن لعبدٍ ضعيف أن يقف بين يدي رب العالمين، وأن يقرأ كلامه، ويسأله الهداية، ويضع جبهته على الأرض متقربًا إليه؟

لكن الإنسان إذا كرر المشهد آلاف المرات قد ينسى جلاله، كما ينسى من يسكن قرب البحر صوت الموج لأنه يسمعه كل يوم.

ولا يعود إلى الدهشة إلا حين يستيقظ قلبه، فيدرك أن الصلاة التي صار يعبرها مسرعًا كانت بابًا مفتوحًا إلى الله.

تأخير اللقاء

من السهو عن الصلاة أن يظل الإنسان يؤخرها حتى يوشك وقتها أن ينقضي، لا لضرورةٍ عارضة، بل لأن كل شيءٍ في حياته يبدو أهم منها.

تدعوه الصلاة، فيقول: بعد أن أنهى هذا الأمر.

ثم ينتهي الأمر ويبدأ غيره.

تدعوه مرةً أخرى، فيرى أن الحديث لا يحتمل القطع، والعمل لا يقبل التأجيل، والهاتف يستحق إكمال ما فيه. وكأن حق الله هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينتظر.

ليس الخلل في وقوع التأخير العارض الذي قد تفرضه ظروفٌ معتبرة، وإنما في الترتيب الداخلي الذي يجعل الصلاة دائمًا في آخر القائمة. فالمواعيد التي نعظم أصحابها نستعد لها، والأمور التي نخشى فواتها نراقب وقتها، وما نحب لقاءه لا نراه عبثًا يقطع أعمالنا.

الصلاة تكشف ترتيب العظمة في القلب.

حين تقول: «الله أكبر»، ثم لا يكون نداء الله أكبر من انشغالاتك، ينشأ التناقض بين ما نطق به اللسان وما قررته الأولويات.

إن الوقت ليس ساعاتٍ فقط؛ الوقت إعلانٌ صامت عما نعدّه مهمًّا. وما تمنحه وقتك تمنحه جزءًا من عمرك.

والصلاة موزعةٌ على اليوم كأنها أعمدةٌ تحفظ سقفه من الانهيار. فإذا أبعدنا الإنسان إلى الحواف، بقي يومه مزدحمًا، لكنه بلا مركز.

الصلاة التي نريد التخلص منها

هناك فرقٌ بين أن تُقبل على الصلاة وبين أن تدخلها لتخرج منها. قد يقف الإنسان وفي ذهنه النهاية قبل البداية، يؤدي الركعات بأقصى سرعة، كأن الصلاة حاجزٌ بينه وبين شيءٍ أكثر أهمية.

لا يطمئن في ركوع، ولا يستقر في سجود، ولا يمنح الآيات فرصةً لأن تقع في قلبه. جسده في سباقٍ مع العبادة، يريد أن ينجزها لا أن يعيشها.

وهذه العجلة ليست مجرد سرعة حركة؛ قد تكون إعلانًا داخليًا أن اللقاء ثقيل.

وما أشد الخسارة حين يتحول الموضع الذي يفترض أن تستريح فيه الروح من أعباء العالم إلى عبءٍ تريد الروح التخلص منه.

نحن لا نحتاج دائمًا إلى إطالة الصلاة، فلكل إنسان حاله وقدرته، وللشريعة سعتها؛ لكننا نحتاج إلى قدرٍ من الطمأنينة يجعل الحركة عبادةً لا إشارة، والسجود نزولًا حقيقيًا لا ملامسةً عابرة للأرض.

قد تكون صلاةٌ قصيرةٌ حاضرةٌ أحب إلى القلب من صلاةٍ طويلةٍ يسوق الإنسان نفسه خلالها سوقًا. فالمقصود ليس طول الزمن وحده، بل صدق الوقوف وحسن أداء ما شرعه الله.

الجسد الذي سبق القلب

حين يكبر المصلّي، قد يكون قلبه ما يزال خارج الصلاة، يواصل حديثًا انقطع، أو نزاعًا وقع، أو تجارةً يترقبها. يتحرك الجسد من قيامٍ إلى ركوع، بينما النفس تسير في طريقٍ آخر.

ليس مرور الخواطر هو المأساة؛ فالذهن البشري لا يُغلق بقرارٍ واحد، والشيطان يجتهد في تشتيت المصلّي. المأساة أن يستسلم الإنسان لهذا الانقسام، وألا يعود يحاول جمع نفسه في حضرة الله.

الخشوع ليس فراغ الذهن من كل خاطر، بل قدرة القلب على العودة كلما شرد.

إنك لا تملك دائمًا منع الطائر من المرور فوق رأسك، لكنك تستطيع ألا تسمح له ببناء عشه في داخلك. يمر خاطر، فترده الآية. يهرب القلب، فيعيده الذكر. يثقل الجسد، فتوقظه معرفة من يقف بين يديه.

وكل عودةٍ في الصلاة عبادة.

قد يهرب القلب عشر مرات، فترده عشراً، ويكون صدقك في محاولات العودة أبلغ من وهم حضورٍ لا مجاهدة فيه.

الله يعلم ضعف الإنسان، ولا يكلفه أن يصير خارج طبيعته، لكنه يدعوه ألا يرضى بالغياب.

السهو عن كلمات نقولها

كم مرة قرأنا الفاتحة دون أن نشعر أنها حديثنا نحن؟

نقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقد امتلأت نفوسنا اعتراضًا على ما فُقد، وغفلت عما بقي.

ونقول: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ثم نحمل إلى عباده قسوة لا يلين لها صوت.

ونقول: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثم نعيش كأن أعمال اليوم لن تقف في يوم الدين.

ونقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، بينما تتوزع خفايا إرادتنا بين المديح والمكانة والشهوة.

ونقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ثم نقاوم طريق الهداية حين يمر بنا في صورة اعتذارٍ يجب أن نقدمه، أو حقٍّ ينبغي أن نرده، أو يتيمٍ يحتاج إلى جبر.

إننا قد نسهو عن الإجابة التي نحملها في أفواهنا.

نطلب الهداية، لكننا نتوقع أن تأتي في صورة شعورٍ نوراني، ولا ننتبه إلى أنها قد تأتي في صورة واجبٍ ثقیل يواجه أنانيتنا.

قد تكون الهداية أن تطعم من كنت تتجاهله، وأن تتصف من ظلمته، وأن تخفي العمل الذي أحببت أن يُرى، وأن تعير ما اعتدت أن تمنعه.

الفاتحة ليست مقدمةً صوتية للصلاة؛ إنها إعادة بناءٍ لعلاقة الإنسان بالله واليوم الآخر والطريق والناس. ومن سها عن هذه المعاني كرر أعظم الكلمات، لكنه حرم قلبه فرصة أن يُعاد تشكيله بها.

السهو الذي يبدأ بعد التسليم

ربما حافظ الإنسان على حضورٍ حسن في صلاته، ثم سها عنها فور خروجه منها. لم ينسَ ركعةً ولا ذكرًا، لكنه نسي العهد كله حين دخل الحياة.

قال: «الله أكبر»، ثم جعل مصلحته أكبر من الحق.

واستعاذ بالله من طريق المغضوب عليهم والضالين، ثم سار في طريقٍ يعرف انحرافه لأن فيه منفعةً عاجلة.

وسجد تواضعًا، ثم خرج يطلب من الناس أن ينحنوا لكبريائه.

وسلم، ثم آذى بلسانه من هم عن يمينه وشماله.

هذا لونٌ دقيق من السهو عن الصلاة: أن نتذكرها داخل جدرانها وننساها خارجها.

فالصلاة ليست جزيرةً منقطعةً عن اليوم، بل نهرٌ ينبغي أن يجري فيه. لا يُطلب من الإنسان أن يظل في هيئة الركوع والسجود، بل أن يحمل آثارها: مراقبة الله، وتعظيم الحق، وخفض الجناح، وحفظ اللسان، وكراهية الظلم.

حين تنتهي الصلاة تبدأ شهادتها.

إِذَا أَنْ تَشْهَدَ لَهَا الْحَيَاةَ بِأَنَّهَا دَخَلَتْ الْقَلْبَ، وَإِذَا أَنْ تَكْشِفَ التَّصَرُّفَاتِ أَنَّهَا مَرَّتْ بِالْجَسَدِ وَحْدَهُ.

لِمَاذَا لَمْ تَمْنَعَهُ صَلَاتَهُ؟

يَسْأَلُ بَعْضُ النَّاسِ: كَيْفَ يَصَلِّي إِنْسَانٌ ثُمَّ يَكْذِبُ أَوْ يَظْلِمُ أَوْ يَقْسُو؟ أَلَيْسَتْ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؟

وَالْجَوَابُ أَنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي أَقَامَهَا الْعَبْدُ حَقًّا تَحْمِلُ قُوَّةَ النِّهْيِ، لَكِنْ انْتِفَاعُهُ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ يَكُونُ بِقَدْرِ حُضُورِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَتَعْظِيمِهِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ فِي الْإِنْسَانِ إِيمَانٌ وَمَعْصِيَةٌ، وَطَاعَةٌ وَضَعْفٌ، وَيُظَلُّ فِي صِرَاحٍ بَيْنَ دَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

الصَّلَاةُ لَا تَسْلُبُ الْإِنْسَانَ اخْتِيَارَهُ، وَلَا تَحُولُهُ آلِيًّا إِلَى شَخْصٍ لَا يَخْطِئُ. إِنَّهَا تَمُدُّهُ بِالنُّورِ وَالْقُوَّةِ وَالتَّذْكِيرِ، لَكِنَّهُ قَدْ يَغْلِقُ مَنَافِذَ النُّورِ أَوْ يَقَاوِمُ أَثَرَهُ أَوْ يَضْعِفُ أَمَامَ هَوَاهُ.

وَمَعَ ذَلِكَ، لَا تَكُونُ الصَّلَاةُ الصَّادِقَةُ بَلَاءً أَثَرُ. قَدْ لَا تَمْنَعُهُ مِنْ كُلِّ سَقُوطٍ، لَكِنَّهَا تَمْنَعُهُ مِنَ الْإِسْتِقْرَارِ مُطْمَئِنًّا فِي الْقَاعِ. تَعِيدُهُ، وَتَوْنِبُهُ، وَتَفْتَحُ لَهُ بَابَ التَّوْبَةِ، وَتَجْعَلُهُ يَرَى خَطِيئَتَهُ خَطِيئَةً لَا بِطَوْلَةٍ.

أَمَّا إِذَا صَارَ يَصَلِّي وَيَظْلِمُ، ثُمَّ يَسْتَخْدِمُ صَلَاتَهُ لِتَبْرِيرِ ظُلْمِهِ، فَقَدْ قَلَبَ وَظِيفَةَ الْعِبَادَةِ؛ فَالدَّوَاءُ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَعَالِجَ مَرَضَهُ جَعَلَهُ شَهَادَةً يَنْكُرُ بِهَا وَجُودَ الْمَرَضِ.

المشكلة ليست أن الصلاة عجزت عن تغييره، بل أنه لم يسمح لها أن تواجه الجزء الذي يريد الاحتفاظ به من نفسه.

السهو عن المقصد لا يعني اختزال الصلاة فيه

ينبغي ألا نفهم أثر الصلاة الأخلاقي على نحوٍ يختزلها في خدمة المجتمع وحدها. فالصلاة عبادةٌ مقصودة لذاتها، وحقٌّ لله، وصلّةٌ بين العبد وربّه، ولا تصبح صحيحةً لمجرد أن صاحبها حسن التعامل.

قد يكون غير المصلّي نافعًا للناس، لكن نفعه لا يسقط عنه فريضة الصلاة. وقد يكون المصلّي مقصرًا في بعض الأخلاق، لكن تقصيره لا يجعل ترك الصلاة علاجًا له.

سورة الماعون لا تستبدل المحراب بالمائدة، بل تصل بينهما. لا تقول: أطعم المسكين بدل أن تصلي، وإنما تحذّر من صلاةٍ لا تُعظّم لله ولا يظهر أثرها في معاملة عباده.

إن حق الله لا ينافس حق الإنسان؛ لأن الذي أمر بالصلاة هو الذي أمر بالرحمة. والعبودية الحقّة تجمع ما جمعه الوحي، ولا تختار جانبًا لتتخلص من الآخر.

فمن قال: يكفيني قلبي الطيب ولا أصلي، فقد فصل الأخلاق عن مصدرها التعبدية.

ومن قال: تكفيني صلاتي ولو ظلمت الناس، فقد فصل العبادة عن مقتضاها الأخلاقي.

وكلاهما أخذ جزءًا وبني منه دينًا على هواه.

حضور الوقت وغياب المعنى

قد يبلغ السهو صورةً أشد خفاءً: أن يحافظ الإنسان على الوقت، ويهتم بالهيئة، لكنه لا يرى في الصلاة إلا معيارًا يحاكم به الآخرين.

تصبح عبادته نافذةً يراقب منها تقصير الناس، لا مرآةً يرى فيها نفسه. كلما ازداد عمله، ازداد شعوره بالتفوق. يقيس المسافة بينه وبين المقصرين، ولا يقيس المسافة بين عمله وحق الله عليه.

وهذا من مكر النفس؛ إذ تستطيع أن تتغذى حتى على الطاعة.

بدل أن يكسر السجود كبرياءها، تجعل من كثرة السجود سببًا لكبرياءٍ جديد. وبدل أن يستشعر العبد فضل الله في توفيقه، ينسب الفضل إلى نفسه، ثم ينظر إلى العاصي باحتقارٍ لا شفقة فيه.

ولا يعني ذلك أن يستوي الطائع والعاصي، أو أن يترك المؤمن إنكار المنكر بالحكمة؛ وإنما يعني ألا تتحول طاعته إلى وثنٍ داخلي يعبد به صورته الصالحة.

فالعارف بربه كلما ازداد عبادةً ازداد شعورًا بالافتقار. يرى توفيقه نعمةً تحتاج إلى الشكر، لا رتبةً تمنحه حق إذلال الناس.

الصلاة التي ترفع صاحبها فوق الخلق في شعوره، ولم تخفضه الله في ضميره، لم تكتمل تربيتها له.

كيف نستعيد الصلاة؟

لا تُستعاد الصلاة بكثرة تأنيب النفس وحده، بل بخطواتٍ تعيد إليها حضورها.

أن يدخل الإنسان إليها قبل أن يكبر؛ فيخلق ما استطاع من أبواب التشييت، ويمنح قلبه لحظةً للانتقال من العالم إلى الوقوف بين يدي رب العالمين.

أن يعرف معنى ما يقرأ، فلا تمر الكلمات على لسانه كأصواتٍ بلا دلالة.

أن ينوع ما يحفظ من الأذكار والصور، فيكسر سلطان العادة، مع المحافظة على الوارد المشروع.

أن يطمئن في الحركات، لأن الجسد المتعجل يجزّ القلب إلى العجلة.

أن يتذكر ذنبه دون يأس، ونعم الله دون غرور، وحاجته دون تكلف.

ثم أن يختار بعد الصلاة أثرًا يحمله إلى يومه: لسانًا يحفظه، أو حقًا يؤديه، أو قلبًا يجبره، أو معروفًا يخفيه.

حينئذٍ لا تبقى الصلاة حدثًا انتهى، بل تتحول إلى قوةٍ ممتدة.

ولا ينبغي أن ينتظر الإنسان خشوعًا كاملاً حتى يحب صلاته. الخشوع ينمو بالمجاهدة، كما تنمو الألفة الصادقة بكثرة الحضور. قد يبدأ القلب مثقلًا، ثم يفتح الله له مع التكرار الصادق بابًا لم يكن يعرفه.

المهم ألا يحول ضعف البداية إلى سببٍ للترك، ولا يجعل التكرار بلا مجاهدة بديلاً من الحياة.

الصلاة والإنسان المكسور

من علامات حضور الصلاة أن تجعل صاحبها أكثر انتباهاً للكسور. فهو نفسه يقف كل يوم معلناً فقره لله؛ فكيف يحتقر فقيراً؟ ويسأل ربه الرحمة؛ فكيف يضيق بمن يحتاج إلى رحمته؟ ويرجو أن يغفر الله تقصيره؛ فكيف لا يحتمل زلّةً من ضعيف؟

الصلاة تعلّمه أنه يعيش كل لحظة بفضلٍ لا باستحقاقٍ محض. نفسه فضل، وقدرته فضل، وماله فضل، وتوفيقه للسجود فضل. فإذا امتلأ بهذا الشعور، لم يعد يرى عطاءه للآخرين منّةً، بل مشاركةً لفضل الله الذي مرّ به.

أما إذا خرج من الصلاة شاعراً بأنه صاحب فضلٍ على الله والناس، فقد سها عن أعمق معانيها: العبودية.

إن اليتيم والمسكين ليسا خارج درس الصلاة. هما السؤال الذي ينتظر المصلّي بعد أن يتعلم الافتقار في المحراب:

ماذا ستفعل بضعف غيرك بعد أن اعترفت بضعفك؟

الغياب الذي يمهد للرياء

السهو عن الصلاة يترك في داخلها فراغاً، والفراغ لا يبقى طويلاً. فإذا غاب تعظيم الله، دخل تعظيم الناس. وإذا ضعف طلب رضاه، قويت الرغبة في رضاهم. وإذا لم تعد الصلاة لقاءً، أصبحت عرضاً.

ومن هنا جاء ترتيب السورة بالغ الدقة: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١﴾﴾
﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾.

كأن السهو يهيئ المكان للرياء. فالقلب لا يستطيع أن يعيش بلا وجهة؛ فإذا لم تمتلئ العبادة بحضور المعبود، امتلأت بحضور الجمهور.

والمرائي قد يكون شديد الانتباه إلى صلاته من جهة الصورة: يضبط حركاته، ويحسن صوته، ويطيل في المواضع التي تثرى. لكنه، مع هذا الانتباه كله، ساه عن حقيقتها؛ لأنه انشغل بكيف تبدو الصلاة، لا بمن تُرفع إليه.

إنه حاضرٌ مع صورته، غائبٌ عن ربه.

وهنا نصل إلى أخفى أمراض العبادة: أن يقف الإنسان متجهاً إلى القبلة الظاهرة، بينما اتخذ قلبه من عيون الناس قبلةً أخرى.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾.

الفصل السادس

العيون التي تتحول إلى قبلة خفية

(الَّذِينَ هُمْ يُرَءَوْْنَ)

بعد السهو تأتي المراءاة: (الَّذِينَ هُمْ يُرَءَوْْنَ).

كأن الغياب عن الله لم يترك القلب فارغاً، وإنما سلّمه إلى الناس. فحين تضعف مراقبة الخالق، تتضخم مراقبة الخلق، وحين يخفت سؤال: «هل رضي الله؟» يرتفع سؤال آخر: «ماذا سيقول الناس؟».

والرياء ليس مجرد حبّ عابرٍ للثناء؛ إنه انحرافٌ في وجهة العمل. يبدأ الفعل في ظاهره لله، ثم تدخل إليه عيون الناس فتزاحم المقصد، وربما استولت عليه حتى لا يبقى لله منه إلا الاسم.

إنه مرضٌ يستطيع أن يرتدي ثياب الفضائل كلها.

قد يدخل الصلاة في هيئة خشوع، والصدقة في هيئة كرم، والعلم في هيئة خدمة، والزهد في هيئة تجرّد، والشجاعة في هيئة نصرّة للحق. لا يملك صورةً خاصّةً به؛ بل يستعير صور الطاعات، ثم يفرغها من وجهتها.

ولهذا كان خفيّاً شديد الخطر.

المعصية الظاهرة قد تُشعر صاحبها بالخجل، أما المرائي فقد يفعل طاعةً ويفرح بها الناس، فيزداد المرض داخله وهو يسمع كلمات الإعجاب. يجمع لذة العمل في الظاهر ولذة الثناء في الخارج، ولا ينتبه إلى أن قلبه يُسرق بهدوء.

العبادة حين تصبح مرآة للذات

الأصل في العبادة أن تخرج الإنسان من أسر نفسه إلى مقام العبودية؛ أن ينسى صورته وهو يناجي الله، وأن يرى فضل ربه لا فضله، ونقصه لا مكانته.

لكن المرائي يقلب اتجاه العبادة. لا يستخدمها للخروج من ذاته، بل لتكبيرها. يقف أمام الله، ولكنه ينظر في الفعل إلى صورته منعكسةً في أعين الناس: كيف ظهر؟ ماذا ظنوا به؟ هل رأوا خشوعه؟ هل حفظوا موقفه؟ هل ارتفعت منزلته؟

لم تعد الصلاة نافذةً يرى منها افتقاره، بل صارت مرآةً يتأمل فيها صلاحه. وهذه عبوديةٌ دقيقة للصورة. فالمرء قد لا يسجد للناس بجسده، لكنه يجعل أحكامهم مصدر قيمته، ومدحهم وقود نشاطه، وإعجابهم الجزاء الذي يتعجله من عمله.

والإنسان الذي يعيش على صورته عند الآخرين لا يكون حرًّا، مهما بدا قويًّا. يظل يحمل جمهورًا متخيلاً في داخله، يراجع كل حركة أمامه، ويخشى سقوطه من عينيه.

قد يخلو وحده، لكنه لا يكون وحيداً؛ فالعيون تسكن رأسه.

القبلة الظاهرة والقبلة الباطنة

يتجه جسد المصلّي إلى القبلة، وهذه طاعة ظاهرة لا تصح الصلاة دونها. لكن للقلب كذلك وجهة لا يراها إلا الله.

قد يستقبل الجسد البيت الحرام، بينما يستقبل القلب وجوه المصلين. ينحني الجسد لله، وينتظر القلب أن ترتفع مكانته عند الخلق. يقرأ كلام الله، لكنه يصغي من داخله إلى انطباعات البشر.

لقد توحد اتجاه البدن وتعدد اتجاه القصد.

والمشكلة ليست أن يعرف الناس بطاعة الإنسان مطلقاً؛ فقد تظهر العبادة بحكم طبيعتها، وقد يكون في إظهار بعض الخير قدوة مشروعة، ولا يُطلب من المؤمن أن يترك العمل الصالح خوفاً من أن يراه أحد. إنما المشكلة أن يصبح نظر الناس علة الفعل، أو أن يتغير العمل من أجلهم، أو أن يطلب القلب منزلته لديهم بعبادةٍ حقها أن تُصرف لله.

الفارق لا يقع دائماً في صورة العمل، بل في القلب الذي يحمله.

قد يتصدق رجلان أمام الناس بالمبلغ نفسه: أحدهما يريد تشجيع الآخرين، ويجاهد نفسه كيلا تتعلق بالمديح، والآخر لا يرى من الفقير إلا خلفيةً لصورة كرمه. الفعل واحدٌ في الظاهر، لكن المسافة بين النيتين بعيدة.

ولهذا لا يملك البشر الحكم القاطع على السرائر. قد تبدو لك طاعة إنسان رياءً وهي صادقة، وقد ترى تواضعًا فتخدعك صورته. القلوب لله وحده، وما نقرؤه هنا ليس أداة لاتهام الناس، بل مصباحٌ يفتش به كل واحدٍ منا عن قلبه.

لماذا نريد أن يرانا الناس؟

في أعماق الرياء حاجةٌ إلى إثبات الذات. يريد الإنسان أن يشعر بأنه مهم، وأن له مكانًا، وأن صورته محبوبة. وهذه الحاجة في أصلها جزءٌ من ضعف البشر؛ فالإنسان يتأثر بنظر مجتمعه، ويسرّه الثناء الحسن.

لكن الخلل يبدأ حين لا يعود الثناء ثمرةً عارضةً للعمل، بل يصبح هو البذرة التي أنبتته.

هناك فرق بين أن تعمل لله، ثم يثني عليك الناس فتفرح بفضل الله مع خوفك على نيتك، وبين أن تعمل لأنك توقعت الثناء، فإذا غاب غاب العمل.

الاختبار الصادق هو هذا السؤال: لو لم يعلم أحد، هل كنت سأفعل؟

ليس المقصود أن يكون الجواب دائمًا كاملاً؛ فقد يجد الإنسان في قلبه ترددًا وضعفًا. لكن اكتشاف الضعف بداية المجاهدة. أما أن يقنع نفسه بالإخلاص، بينما نشاطه يصعد ويهبط وفق عدد المشاهدين، فإنه يغلق باب العلاج.

الرياء يعيش في المنطقة التي نرفض تفتيشها.

نشاطُ تصنعه العيون

للعيون أثرٌ عجيب في الجسد. قد يكون الإنسان فاتراً، فإذا دخل عليه من يحترمه اعتدل صوته وحسنت هيئته وطالت عبادته. وقد يكون على وشك إنهاء عمله، فإذا شعر أن أحداً يراقبه زاد وأتقن.

هذه الاستجابة لا تعني دائماً رياءً مستقراً؛ فقد ينشط الإنسان بصحبة الصالحين، ويستحي أن يقصر أمامهم، ثم يجاهد نفسه. لكن الخطر أن يصبح وجودهم هو المصدر الوحيد للنشاط.

المرائي لا يحب العمل بقدر ما يحب أن يُنسب إليه العمل.

فإذا ضمننت له النسبة ربما لم يهتم بالحقيقة. وقد يصنع من الحديث عن مشروعاته أكثر مما يصنع منها في الواقع؛ لأن الإعلان يمنحه ثمرةً عاجلةً بأقل كلفة. يسمع المديح قبل أن يكتمل الجهد، فيشبع وهمياً عن الإنجاز.

وهكذا قد يستهلك وصفُ العمل طاقته على العمل.

الإخلاص، في المقابل، يملك قدرةً على الاستمرار في الظلام. لا يحتاج في كل خطوةٍ إلى تصفيق، ولا يتوقف لأن اسمه لم يُذكر. يعرف أن العمل محفوظٌ عند الله، ولو سقط من ذاكرة الناس.

العبادة بوصفها عرضاً

حين تدخل المراءة إلى الصلاة، يتحول المحراب إلى مسرح، والمصلّون إلى جمهور، والخشوع إلى أداءٍ محسوب. لا يعود المرئي منشغلاً بما يقول، بل بما توحى به طريقته في القول.

قد يختار من نبرات الحزن ما يحرك الناس، ويطيل حيث يراه الناظرون، ويحرص على علامات الصلاح أكثر من حرصه على الصلاح نفسه. وربما تأثر هو بأدائه، فظن أن التأثير دليل الصدق، مع أن النفس تستطيع أن تنفعل بصورتها كما ينفعل الممثل بالمشهد.

ليست كل دمة رياء، ولا كل صوت حسن موضع اتهام، ولا كل عبادة ظاهرة فاسدة؛ فهذه أحكام لا يعلمها إلا الله. لكن السورة تحذر القلب من أن يتخذ المشاعر نفسها مادةً للعرض.

حتى الانكسار قد يتحول إلى زينة.

وقد يظهر المرئي تواضعه بطريقة تضمن أن يراه الناس متواضعاً. يذكر عيوبه ليقال إنه لا يرى لنفسه فضلاً، ويهرب من موضع الصدارة هروباً مسموعاً يستدعي من الناس أن يعيدوه إليه.

إن النفس بارعة في العودة إلى المركز، حتى حين تتحدث عن فنائها.

صورة الصالح أثقل من حقيقة الصلاح

من ابتلي بحب الصورة قد يصبح أسيرًا لها. يخشى أن يعترف بخطئه لأن الناس عرفوه واعظًا، أو يتوب علنًا من ظلم ظهر لأن اعترافه سيجرح مكانته. فيفضل حماية صورة الصالح على فعل الصلاح نفسه.

وهنا يتحول الرياء من خللٍ في النية إلى قوةٍ تمنع الإصلاح.

فالإنسان الصادق قد يخطئ، لكنه يملك شجاعة الرجوع؛ لأن رضى الله عنده أثمن من بقاء صورته بلا خدش. أما أسير السمعة فيبني حول خطئه تبريراتٍ كثيرة، لا لأنه لا يرى الحق، بل لأنه يرى ثمن الاعتراف به في عيون الناس كبيرًا.

إن من أعظم علامات الإخلاص أن تختار أن تبدو مخطئًا باعترافك، بدل أن تبقى صالحًا في أعين الناس بإصرارك على الظلم.

فالصورة التي لا تبقى إلا بالكذب ليست كرامة، بل سجن.

الرياء لا يحب اليتيم إلا أمام الكاميرا

تعود بنا السورة من الصلاة إلى اليتيم والمسكين. فالمرائي قد لا يدع اليتيم علنًا؛ لأنه يعلم أن القسوة تضر صورته. وربما اقترب منه، وابتسم له، وأعطاه، لكن لا ليرحم قلبه، بل ليستعير جرحه لتجميل نفسه.

وحين تغيب العيون، يغيب الاهتمام.

هنا يقع نوعٌ آخر من الدّع: أن يُستخدم اليتيم مادةً دعائية، وأن تتحول حاجة المسكين إلى خلفيةٍ لصناعة البطل. لقد مُدَّت اليد إليه، لكنها أخذت منه أكثر مما أعطته؛ أخذت خصوصيته، وقصته، وصورته، وربما كرامته.

الإحسان الذي يطلب وجه الله يركز على المحتاج.

والإحسان الذي يطلب وجه الناس يركز على المحسن.

في الأول يصبح الفقير إنساناً يجب جبره، وفي الثاني يصبح وسيلةً ينبغي توظيفها.

ولهذا كانت الصدقة الخفية تربيةً مزدوجة: تحفظ كرامة المحتاج، وتحرر نفس المعطي من انتظار المديح. ليست الأفضلية للخفاء في كل حالٍ بإطلاق، فقد تظهر الصدقة لمصلحةٍ راجحةٍ وحثٍّ على الخير، لكن الخفاء يظل ملجأً عظيمًا للقلب حين يخشى أن تسرق العيون عمله.

الجمهور الذي نحملة معنا إلى الخلوة

قد يظن الإنسان أنه إذا أغلق بابه فقد خلا، لكنه يحمل هاتفه، وخياله، واحتمال الحكاية. يفعل العمل وحده، ثم يصوغه في ذهنه قصةً سيرويهها، أو يترك إشارةً تقود الناس إلى اكتشافه.

فلم يكن خافيًا تمامًا؛ كان يؤجل الجمهور فقط.

وربما قاوم أن يذكر العمل مباشرة، لكنه تحدث عن الظروف المحيطة به حتى يفهم السامعون المقصود. فالنفس تريد نصيبها، وإذا مُنعت الباب دخلت من النافذة.

الإخلاص ليس مجرد غياب الناس عن مكان الفعل، بل غياب الحاجة إليهم عن مقصده.

وقد يعمل الإنسان أمام آلافٍ وهو مخلص، ويعمل وحده وهو يرئى جمهوراً متخيلاً. المكان لا يحسم القضية؛ القلب هو الميدان.

ولهذا يحتاج المؤمن إلى أعمالٍ لا يعرفها أحد ولا يترك لها أثراً يقود إليه، أعمالٍ تموت أخبارها في الأرض وتبقى حقائقها في السماء. صدقةٌ لا يرويها، ودعاءٌ لإنسان لا يعلم به، ودمعةٌ لا يحولها إلى عبارة، وخدمةٌ يتنحى بعد أدائها.

هذه الأعمال تشبه الآبار السرية التي تسقي الروح حين يجف كل شيء.

هل الفرح بثناء الناس رياء؟

قد يعمل المؤمن عملاً خالصاً، ثم يسمع ثناءً فيفرح. وليس كل فرحٍ بالثناء رياء؛ فالنفوس تسرّ بحسن الذكر، وقد يكون الثناء بشارةً عاجلة للمؤمن. لكن عليه أن يراقب طبيعة فرحه: هل يردّه إلى فضل الله ويزداد خوفاً وشكراً، أم يجعله يرى نفسه مصدر الخير، ويصبح المديح مطلباً لا يستغني عنه؟

الاختبار يظهر في غياب الثناء.

هل يستمر العمل حين لا يشكر أحد؟

هل يغضب إذا نُسب الفضل إلى غيره؟

هل يحزن لأن الخير لم يتحقق، أم لأن اسمه لم يُذكر؟

قد يحزن الإنسان حين يُجدد جهده، وهذا شعورٌ بشري لا يُدان بمجردِه. لكن مجاهدة الإخلاص تبدأ بأن يعيد ترتيب الخسارة: إذا تحقق الخير وفاتني الثناء، فقد فاتني شيءٌ من الدنيا وبقي المقصود. أما إذا فشل الخير واحتفظت بصورتي، فما الذي ربحت حقاً؟

المخلص يهتم بأن يصل النفع، ولو عبر يدٍ أخرى.

والمرائي يهتم بأن يُعرف أن النفع مرّ من يده، ولو ضعف أثره.

الرياء في الفكر والدعوة

لا يقتصر الرياء على الصلاة والصدقة. قد يدخل العلم والكتابة والدعوة والدفاع عن الحق. يتحدث الإنسان بلسان القضية، بينما تخوض ذاته معركة سريةً على المكانة.

قد يفرح بانتشار الفكرة ما دام اسمه ملتصقاً بها، فإذا قالها غيره شعر أن شيئاً سُرِق منه. وقد يدافع عن الحق، لكنه يرفضه حين يأتي من خصمه. وقد ينصح الناس، لا ليخرجوا من الخطأ، بل ليظهر هو فوقهم.

وهنا يصير الحق خادماً للذات، بدل أن تكون الذات خادمةً للحق.

إن الإخلاص الفكري أن تحب الفكرة الصحيحة أكثر من حبك لنفسيتها إليك، وأن تفرح بانتصارها ولو لم يُذكر اسمك، وأن تراجع رأيك حين يتبين خطؤه، فلا تجعل كرامتك الشخصية رهينة لبقاء الفكرة باطلة.

وقد يكون الاعتراف: «أخطأت» أصدق عبادة يؤديها العالم أو الكاتب في لحظة؛ لأنه يذبح بها صورته من أجل الحقيقة.

الرياء يريد أن يظل صاحبه منتصرًا.

والإخلاص يريد للحق أن ينتصر، ولو انهزمت الذات أمامه.

خوف الرياء لا يوقف العمل

من مداخل الشيطان أن يخوف الإنسان من الرياء حتى يترك الخير. يريد أن يصلي في جماعة، فيقول: سيظن الناس بك الصلاح. يريد أن يتصدق علنًا لحث الآخرين، فيقول: أنت مرءٍ. يريد أن ينشر علمًا نافعًا، فيقول: إنك تطلب الشهرة.

فإذا ترك العمل، تحقق للشيطان ما أراد.

ليس العلاج أن تهرب من الطاعة كلما شعرت بحركة النفس، بل أن تمضي وتجاهد القصد. صحّ نيتك في البداية، وراجعها في الطريق، واستغفر في النهاية. فالنية ليست ختمًا يوضع على العمل مرة واحدة؛ قد تضعف وتقوى، ويدخلها ما يفسدها، ثم يطرده الصدق.

ولو انتظر الإنسان نية لا يعبرها خاطرٌ بشري، لتعطلت أعمال كثيرة.

الإخلاص ليس براءةً فطريةً دائمةً من التفات القلب، بل صدق الحرب على هذا الالتفات.

افعل الخير، ولا تترك للنفس أن تستولي على معناه. وإن مدحك الناس، فردّ الفضل إلى الله. وإن ذموك، فلا تترك الحق لإرضائهم. وإن وجدت قلبك يطلبهم، فذكره بمن يعلم السر ويملك الجزاء.

كيف يُعالج الرياء؟

أول العلاج معرفة الله. كلما عظم الله في القلب، صغرت العيون. ومن عرف أن الناس لا يملكون له نفعًا ولا ضررًا إلا بما شاء الله، لم يبيع عبادته مقابل كلماتهم.

وثانيه معرفة النفس. ألا يثق الإنسان بسلامة قصده ثقةً تعميه، ولا ييأس من إصلاحه. يراقب اختلاف نشاطه بين السر والعلن، وحزنه عند غياب التقدير، ورغبته في حكاية أعماله.

وثالثه أن يجعل لنفسه خبيئةً صالحة. عملاً لا يفتح عليه باب الحديث، يربي به قلبه على الاكتفاء بعلم الله.

ورابعه أن يتذكر قصر عمر المديح. الكلمات التي يطلبها المرائي لا تبقى؛ قد يقولها أصحابها ثم ينسونها في اليوم نفسه، بينما يكون هو قد دفع من إخلاصه ثمنًا لما لم يبقَ في ذاكرتهم.

وخامسه أن يدعو الله صادقًا أن يطهر قلبه؛ فالقلوب بين يديه، ولا ينجو الإنسان من دقائق نفسه بحوله وحده.

وليس معنى العلاج أن ينشغل المصلّي بنيته حتى يصير أسيرًا للوسواس. المقصود يقظة متوازنة: يخاف ولا يقنط، ويراجع ولا يشلّ نفسه، ويستعين بالله ثم يمضي في العمل.

خسارة لا يراها الجمهور

المأساة الكبرى في الرياء أن صاحبه قد يربح كل شيء ظاهرًا.

يراه الناس، ويمدحونه، ويرفعونه، ويحسنون الظن به. قد يبلغ المكانة التي أرادها، ويحيط به جمهورٌ يذكر فضله. ومن ينظر إليه يظنه فائزًا.

لكن الله يعلم الموضع الذي اتجه إليه قلبه.

إنه لم يُظلم؛ لقد طلب أجرًا عاجلاً فناله، أراد الذكر فذكر، وأراد المكانة فنال منها ما كتب له. غير أنه يأتي يومًا يحتاج فيه إلى العمل، فيجده قد استهلك في صناعة صورةٍ ماتت بموت أصحابها.

أي خسارةٍ أشد من أن يحمل الإنسان إلى الآخرة سجلًا ممتلئًا بالأعمال، ثم يكتشف أن أكثرها كان متجهًا إلى غير الوجهة؟

لقد تعب الجسد، وسهر الليل، وأنفق المال، لكن القلب وقّع العمل باسم الجمهور.

والمخلص قد يبدو في الدنيا أقل حضورًا، لكن أعماله تسبقه إلى موضعٍ لا تضيع فيه الودائع.

من عبودية الصورة إلى حرية الإخلاص

الإخلاص راحة، وإن كان بلوغه مجاهدة. يحرر الإنسان من تبدل آراء الناس؛ فلا يطير مع المديح ولا ينهار مع الذم، ولا يغير وجهته كلما تغير الجمهور.

ليس معنى ذلك أن يصبح جامدًا لا يسمع النقد، أو متكبرًا لا يهتم بأثر عمله؛ بل أن يزن ما يسمع بالحق، لا بحظ نفسه. يقبل الملاحظة الصحيحة ولو آلمته، ويرفض التصفيق الذي يدفعه إلى الباطل ولو أطربه.

المخلص لا يحتاج إلى صناعة نسخة مثالية من نفسه. يستطيع أن يعترف بضعفه، وأن يقول: لا أعلم، وأن يتراجع، وأن يبدأ من جديد؛ لأن قيمته لا تقوم على إقناع الناس بأنه كامل.

إنه عبدٌ يحاول، لا صورةٌ مقدسة تحاول حماية نفسها.

وحين يتحرر من الجمهور، يصبح أكثر نفعًا لهم؛ لأنه لا يستخدمهم لبناء ذاته، بل يخدمهم دون أن يطالبهم دائمًا بثمنٍ عاطفي من المدح والولاء.

المرائي والماعون

بعد أن كشفت السورة رياء العبادة، تنتهي إلى سلوكٍ يومي صغير: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

وهذه النهاية تفضح الرياء من زاويةٍ جديدة. فالمرائي قد يقدم العمل الكبير حين يُرى، لكنه يمنع المعروف الصغير حين لا يلتفت إليه أحد. ينشط في المناسبات، ويغيب عن الحاجات اليومية. يحب العطاء الذي يصنع له صورة، ولا يحب النفع الذي يمر في صمت.

إن الماعون لا يبني مجداً اجتماعياً. إعاره إناء، أو أداة، أو تقديم منفعةٍ يسيرة، لا تصنع عادةً مشهداً يستحق التصوير. ولذلك تكشف استعداد الإنسان للخير حين لا توجد مكافأة ظاهرة.

هناك، في تفصيلٍ صغير بين جارٍ وجاره، تنتهي السورة إلى الامتحان الأكثر بساطةً والأشد صدقاً:

هل تنفع لأن النفع خير، أم لا تفعل الخير إلا حين يمنحك حجماً في عيون الناس؟

بدأ الرياء بعملٍ ظاهر يريد صاحبه أن يراه الناس، وانتهى المنع بمعروفٍ خفي لا يراه أحد. وبينهما تتكشف معادلة القلب: يعطي حيث تكبر صورته، ويمنع حيث لا ينتظره ثناء.

وهنا نصل إلى الماعون؛ إلى الأشياء الصغيرة التي حسبنا أنها خارج ميزان العقيدة، فإذا بها الشاهد الأخير على حقيقتها.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

الفصل السابع

فلسفة الماعون

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾

تنتهي السورة بكلمة صغيرة في صوتها، واسعة في دلالتها: ﴿الْمَاعُونَ﴾.

بدأت السورة بقضية تهز الوجود الإنساني كله: ﴿يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ﴾.

ثم انتهت بشيء يتداوله الناس في حياتهم اليومية: متاع يسير، أو أداة تُعار، أو منفعة صغيرة لا يثقل بذلها على صاحبها.

بين «الدين» و«الماعون» مسافة تبدو بعيدة، لكن السورة تطويها في سبع آيات؛ لأن الإيمان بالحقائق الكبرى لا يبقى معلقاً في الذهن، بل ينزل حتى يظهر في أبسط التصرفات. وما يستقر في أعماق القلب يخرج على أطراف الأصابع: في شيء تعطيه، أو باب تفتحه، أو حاجة تسدّها، أو منفعة تمنعها.

إن العقيدة التي لا تصل إلى الماعون لم تملأ الطريق بين القلب واليد.

ما الماعون؟

ذكر أهل التفسير في الماعون معاني متعددة متقاربة: فمنهم من حمله على الزكاة، ومنهم من جعله ما يتعاوره الناس بينهم من المنافع والأمتعة، كالإناء

والدلو والفأس ونحوها، ومنهم من وسّع دلالاته لتشمل المعروف والنفع اليسير.

وتلتقي هذه المعاني عند فكرة واحدة: حقٌّ أو نفعٌ يحتاج إليه الآخر، ويبخل به صاحبه مع قدرته عليه.

فالماعون قد يكون حقًا واجبًا كالزكاة، وقد يكون عاريةً يسيرة جرى عرف الناس على تبادلها، وقد يكون كل معروفٍ قليل الكلفة عظيم الأثر في وقته.

وقوة الكلمة أنها لا تحبس الإنسان في صورةٍ واحدة. فلكل عصرٍ ماعونه، ولكل مجتمعٍ حاجاته التي يتعاون الناس فيها، ولكل إنسانٍ شيءٌ يستطيع أن ينفع به غيره دون أن يفقد من حياته إلا القليل.

قد يكون الماعون إناءً، وقد يكون أداة عمل.

وقد يكون مركبةً تحمل مريضًا.

وقد يكون هاتفًا يجري به اتصالٌ ضروري.

وقد يكون كتابًا ينتفع به طالب.

وقد يكون معلومةً تدلّ حائرًا على طريق.

وقد يكون وقتًا يسيرًا تنصت فيه لمتعب.

وليس المقصود أن نسوّي بين جميع هذه الصور في الحكم الفقهي، وإنما أن نتأمل الروح الأخلاقية التي تجمعها: استعداد الإنسان لأن يجعل بعض ما في يده جسراً يعبر عليه نفعٌ إلى غيره.

لماذا قالت السورة: ﴿يَمْنَعُونَ﴾؟

المنع ليس مجرد غياب العطاء؛ إنه فعلٌ إرادي. هناك نفعٌ يستطيع أن يصل، لكن يداً وقفت في طريقه. الشيء موجود، والحاجة قائمة، والقدرة على البذل حاضرة، ثم جاء المنع.

لهذا يحمل اللفظ معنى الانقباض الداخلي. فصاحب الماعون لا يعجز عن النفع، لكنه يضيق به. يخشى على متاعه من نقصٍ يسير، أو يكره أن ينتفع الآخرون بما يملك، أو يستثقل مجرد خروج الشيء من سلطانه لحظةً. إنه لا يحرس حاجته، بل يحرس إحساسه بالتملك.

وقد يبلغ التعلق بالأشياء حدًّا تصبح فيه ملكية الإنسان لها نوعاً من ملكيتها له. يظن أنه يمسك بها، بينما هي تمسك بقلبه. يغضب إذا استُعملت، ويقلق إذا خرجت، ويتألم من نفع الآخرين بها أكثر مما يفرح ببقائها ساكنةً عنده.

الشيء الذي خُلق ليُنتفع به يتحول إلى سجين، وصاحبه يتحول إلى حارسٍ لسجنه.

الأشياء الصغيرة تكشف الأخلاق الكبيرة

يستطيع الإنسان أن يتجمل في المواقف الكبرى؛ لأنها تلفت الأنظار وتدعوه إلى الاستعداد. قد يظهر كرمًا في مناسبة عامة، أو يقدم تبرعًا يُذكر، أو يقف موقفًا يراه الناس.

لكن التفاصيل اليومية تأتي بلا إعلان. لا تمنحه وقتًا لارتداء صورته المثالية. يطرق الجار بابه طالبًا أداة يسيرة، أو يسأله زميلٌ معلومةً، أو يحتاج إنسانٌ إلى دقائق من وقته. هنا يخرج رد الفعل من موضع عميق لم يتهيأ للعرض. ولهذا تكون الأشياء الصغيرة شديدة الصدق.

ليس لأنها أعظم من الواجبات الكبرى، بل لأنها تتكرر حتى ترسم الطبيعة الحقيقية للإنسان. موقفٌ واحد من الكرم قد يكون استثناءً، أما مئات التفاصيل الصغيرة فتصنع السيرة.

الخلق ليس خطبةً يلقيها الإنسان عن نفسه، بل عاداتٌ دقيقة لا ينتبه إليها. طريقة رده على السؤال.

مقدار ضيقه من طلب يسير.

استعداده لتسهيل شأن غيره.

حرصه على رد المستعار.

قدرته على أن يقول: تفضل، دون أن يشعر أنه خسر جزءًا من سيادته.

هذه الجزئيات هي الحروف التي تكتب بها الشخصية كتابها الخفي.

الماعون وبناء الثقة

حين يتبادل الناس المنافع الصغيرة، لا تنتقل الأشياء وحدها؛ تنتقل معها رسائل الأمان. حين يعير الجار جاره أداةً، فإنه يقول له دون كلام: حاجتك تعينني، وما عندي يمكن أن يحمل إليك نفعًا.

وحين يحفظ المستعير الشيء ويرده، يجيبه: أمانتك محفوظة، ومعروفك لن يتحول إلى خسارة.

وهكذا يُبنى المجتمع من حركاتٍ تبدو ضئيلة. الثقة لا تنشأ فقط من العقود الكبرى، بل من إناءٍ عادٍ سالمًا، ووعْدٍ صغيرٍ تمّ الوفاء به، وبابٍ فُتح في ساعة حاجة.

وإذا شاع منع الماعون، انكمش الناس داخل بيوتهم ونفوسهم. يملك كل واحدٍ أشياءه، لكنه يفقد محيطه. تتراكم الممتلكات، وتتآكل الروابط. يصبح الجار أقرب الناس مكانًا وأبعدهم شعورًا.

وقد يمتلك كل بيتٍ نسخته الخاصة من أشياء لا تُستخدم إلا نادرًا؛ لأن الثقة ماتت، والتعاون اختفى، والخوف من الآخر صار أقوى من منفعة المشاركة.

الماعون، بهذا المعنى، ليس أداةً منزليةً فحسب؛ إنه خيطٌ صغير يخيطة أطراف المجتمع.

حق المعطي وأمانة الآخذ

لا تعني الدعوة إلى بذل الماعون إهدار حق مالكه، ولا إلزامه أن يسلم متاعه لمن عُرف بإتلاف الأمانات أو عدم ردها. فالتعاون يقوم على أخلاق الطرفين: سماحة المعطي وأمانة الآخذ.

كما أن المنع يكشف بخلاً، فإن إهمال المستعار يقتل روح الإعارة. من يأخذ أشياء الناس ثم لا يحفظها، أو يتأخر في ردها بلا عذر، أو يعيدها تالفة دون اعتذارٍ أو إصلاح، يضع حجرًا في طريق المعروف.

إنه لا يسيء إلى صاحب الشيء وحده، بل يضيق الباب على محتاجين سيأتون بعده.

فالمجتمع المتراحم لا يُبنى بالكرم وحده، وإنما بالكرم والثقة. المعطي يفتح يده، والمستعير يحفظ ما دخلها منه، حتى تستمر الدورة الأخلاقية دون أن تتحول السماحة إلى غفلة، أو الحذر إلى قسوة.

ومن الظلم أن يُلام من امتنع لسببٍ معتبر كما يُلام البخيل الذي يمنع لمجرد المنع. السورة تكشف قلبًا صار المنع صفته: (وَيَمْنَعُونَ)، لا موقفًا اضطر إليه في حالٍ مخصوصة.

حين يصبح الاحتياط اسمًا للبخل

للنفس قدرةٌ عجيبة على اختيار أسماء محترمة لأمرائها. لا يقول البخيل: أنا لا أحب نفع الناس، بل يقول: أنا حريص. ولا يقول: أكره أن يشاركني

أحد، بل يقول: التجارب علمتني. ولا يقول: تعلّقت بالأشياء، بل يقول: النظام يقتضي ذلك.

وقد تكون هذه الاعتبارات صحيحةً أحياناً، لكن المشكلة أن تتحول إلى قانونٍ يلغي كل معروف.

الحكمة تضبط العطاء، أما البخل فيمنعه.

الحكمة تفرّق بين الأمين والمضيّع، وبين الحاجة الحقيقية والعبث، وبين ما يمكن بذله وما يترتب على بذله ضرر. أما البخل فيبدأ بالرفض، ثم يبحث عن سببٍ مهذبٍ يعلقه عليه.

والفارق يظهر في روح الإنسان: هل يتمنى أن يجد طريقةً آمنةً للنفع، أم يتمنى أن يجد حجةً مقنعةً للمنع؟

قد لا يستطيع أن يعير الشيء نفسه، لكنه يقدم بديلاً، أو يعين بطريقة أخرى، أو يعتذر بصدق. صاحب القلب النافع لا يفرح بالعجز، ولا يتخذ من تعذر طريقٍ واحد سبباً لإغلاق جميع الطرق.

الماعون الذي لا يرى

قد يملك الإنسان أشياءً ماديةً قليلة، لكنه يملك من المواهب والخبرات ما يحتاج إليه الآخرون. وربما كان من أشد صور المنع أن يحتكر معرفةً لا تنقص حين يشاركها.

هناك من يمنع المعلومة لأنه يريد أن يبقى الناس محتاجين إليه، ويعقد الطريق ليثبت أهميته، ويخفي الفرص عن غيره خشية أن ينافسه. كأن النجاح عنده مساحة ضيقة، لا يرتفع فيها إلا إذا أبقى الآخرين في الأسفل.

وهذا ماعونٌ معنوي.

المعرفة التي تنفع لا تبلى بالعطاء، بل تنمو. والخبرة التي تختصر على إنسان سنواتٍ من الخطأ قد لا تكلف صاحبها إلا دقائق من الشرح. والكلمة التي تدلّ على باب رزق قد تكون في ميزان المحتاج أثمن من مالٍ مؤقت.

ليس كل كتمانٍ مذمومًا؛ فهناك أسرارٌ وأمانات وحقوقٌ فكرية وحدودٌ يجب حفظها. لكن احتكار النفع لمجرد السيطرة مرضٌ آخر من أمراض المنع.

العلم الذي لا يسمح صاحبه لثماره أن تصل إلى الناس قد يتحول من نورٍ في العقل إلى قفلٍ في القلب.

منع الوقت

في عصرٍ ازدحمت فيه الحياة، صار الوقت من أثمن ما يملك الإنسان. ولذلك قد يكون بذل دقائق صادقة نوعًا من الماعون الذي يحتاج إليه الناس.

إنسانٌ يريد من يسمع سؤاله.

شابٌ يحتاج توجيهًا يمنعه من قرارٍ خاطئ.

كبير سنٍ يريد من يقرأ له ورقة.

مريضٌ يحتاج مرافقًا.

غريبٌ يسأل عن طريق.

قد لا يحتاج هؤلاء مالا، بل حضورًا بشريًا قصيرًا يعيد إليهم شعورهم بأن العالم ليس منشغلًا عنهم تمامًا.

ومن الطبيعي أن يحفظ الإنسان وقته وحدوده، وألا يسمح للفوضى أن تبتلع حياته. لكن هناك فرقًا بين تنظيم الوقت وبين تحويل الانشغال إلى هوية متكبرة، يشعر معها المحتاج أنه يعتذر عن مجرد وجوده.

أحيانًا لا تكون قيمة المعروف في حجمه، بل في توقيته. دقيقةٌ في ساعة الخوف قد تزن ساعاتٍ في زمن الطمأنينة.

المؤسسات التي تمنع الماعون

قد يكون المنع فرديًا، وقد يتحول إلى نظام. توجد خدمةٌ عامة، لكن الإجراءات تُعقّد حتى يعجز المحتاج عن الوصول إليها. يملك الموظف توقيعا يسيرًا، لكنه يجعل الناس ينتظرون ليشعر بثقل موقعه. توجد معلومةٌ من حق المواطن، فتُحجب عنه، أو يُضطر إلى دفع ما لا يجب عليه كي يحصل على حقه.

هنا يصبح الماعون بابًا لفهم أخلاق السلطة.

فالمنصب نفسه نوعٌ من القدرة التي أودعها المجتمع في يد صاحبه ليقضي بها مصالح الناس. فإذا حوّلها إلى أداة إذلال، فقد منع ماعونًا أعظم من إناء؛ منع حقًّا كان يستطيع تمريره بكلمة أو توقيع.

وبعض الناس لا يملكون مألًا كثيرًا، لكنهم يملكون «نعم» أو «لا» في مكانٍ مؤثر. أخلاقهم تظهر في طريقة استعمال هذه الكلمة: هل يفتحون بها الطريق لأصحاب الحقوق، أم يجعلونها سوطًا يذكّرون به الآخرين بحاجتهم إليهم؟ إن تيسير شؤون الناس عبادةٌ قد لا يراها الجمهور، لكنها في ميزان الماعون نفعٌ جليل.

البيت الذي لا يعير شيئًا

في البيت تبدأ التربية على الماعون. يرى الطفل كيف يستقبل أهله طلب الجار، وكيف يتحدثون عن المحتاج بعد انصرافه، وهل يقدمون الشيء بوجهٍ طلق أم بضيقٍ يحوّل المعروف إلى ألم.

ومن هذه التفاصيل يتعلم معنى الملكية.

إما أن يتعلم أن ما في اليد أمانةٌ يمكن أن تصنع مودة، وإما أن يتعلم أن كل شيءٍ وراء الباب تهديدٌ ينبغي حراسته من الآخرين.

وقد يرَبِّي الآباء أبناءهم على المشاركة، ثم يهدمون درسهم حين يسخرون من فقير أو يمتّون بمعروف. فالطفل لا يتعلم من العبارة وحدها، بل من النبذة التي ترافق العطاء.

وكم من إنسانٍ كريمٍ نشأ في بيتٍ قليلٍ المتاع، لكنه رأى القليل يتحرك بين الجيران حتى اتسعت روحه. وكم من إنسانٍ شحيحٍ نشأ بين وفرةٍ ظن معها أن الأشياء لا تحفظ إلا حين تُحجب.

الفقر لا يصنع البخل حتمًا، والغنى لا يصنع الكرم تلقائيًا. إنما تصنعهما الطريقة التي يرى بها القلب ما يملك.

قيمة الأشياء في حركتها

الماء الذي يبقى حبيسًا يأسن، والمال الذي ينقطع عن وجوه الخير يتحول إلى حسابٍ بارد، والمعرفة التي لا تُبذل تضيق بصاحبها، والأداة التي لا تنفع أحدًا تبقى مادةً صامتة.

الأشياء تكتسب جانبًا من معناها حين تدخل في دورة النفع.

ليس الكوب جميلًا بصناعته فقط، بل بالماء الذي يحمله إلى عطشان. وليست المركبة قيمةً من معدنها وحده، بل بالمريض الذي تبلغ به المستشفى. وليس البيت جدرانًا فحسب، بل بالأمان الذي يمنحه لمن يسكنه أو يطرق بابه.

وحين يمنع الإنسان الماعون، فإنه يعطل الوظيفة الأخلاقية للأشياء. يبقئها داخل حدود ملكيته، لكنه يحرمها أن تكون شاهد خيرٍ له.

نحن نتصور أن ما نبذله يخرج من أيدينا، لكن الحقيقة أن ما نبذله لله هو الذي يخرج من الفناء إلى البقاء. أما ما نحبسه حتى نموت عنه، فهو الذي كان عابرًا.

ليس السؤال: كم بقي عندك؟

بل: كم عبر منك إلى معنى لا يموت؟

الكرم ليس كثرة المال

قد يملك إنسانٌ القليل، ومع ذلك يشعر كل من حوله أن له نصيبًا من حضوره. لا يملك بيتًا واسعًا، لكن قلبه يتسع. ولا يملك مالا كثيرًا، لكنه لا يمنع كلمةً أو جهدًا أو أداةً يستطيع بذلها.

وقد يملك آخر الكثير، لكن من حوله لا يجدون منه نفعًا. ثروته واسعة، وروحه ضيقة. الأشياء متوفرة في يده، إلا أن طريقها إلى الناس مغلق.

الكرم ليس حجم الممتلكات، بل اتساع الإذن الداخلي بالنفع.

أن تشعر أن وجودك في العالم ينبغي أن يخفف عن أحد، وأن ما منحك الله ليس كله لك بمعنى الانفراد، وأن لك من النعمة حق الانتفاع، وعليك منها واجب الشكر.

والشكر ليس قولًا باللسان وحده؛ من شكر الأداة أن تستخدم في الخير، ومن شكر العلم أن يُعلم، ومن شكر القوة أن تحمي، ومن شكر الوقت أن تمنح منه لما يستحق.

كل نعمةٍ تحمل ماعونها الخاص.

مأساة المنع: أن يعيش الإنسان بلا أثر

ليس أسوأ ما في منع الماعون أن محتاجًا لم يحصل على أداة، بل أن المانع يدرّب نفسه كل مرة على الانكماش. كل «لا» يقولها بلا سببٍ معتبر تضيق بها روحه قليلًا، حتى يصبح وجود الآخرين عبئًا على ملكيته وراحته.

يظن أنه يحمي أشياءه، لكنه يخسر قدرته على المودة.

وقد يعيش طويلًا محاطًا بما جمع، ثم يكتشف أنه لم يجعل من شيءٍ يملكه طريقًا إلى قلبٍ أو دعوةٍ صالحة أو أثرٍ باقٍ. كانت الأشياء عنده كثيرة، لكن حياته كانت قليلة المعنى.

فالإنسان لا يُقاس فقط بما دخل إلى يده، بل بما خرج منها من خير.

وما قيمة أن تكون خزانة ممتلئة وسيرتك فارغة؟

من «أرأيت» إلى «الماعون»

الآن يمكننا أن نرى هندسة السورة كاملة:

سألنا أولاً أن نرى: (أَرَأَيْتَ).

ثم أرتنا يدًا تدفع: (يَدُغُ الْيَتِيمَ).

وأرتنا ضميرًا لا يحض على إطعام الجائع.

ثم أدخلنا إلى صلاةٍ سها صاحبها عنها، وطلب بها أعين الناس.

وأخيرًا أرتنا يدًا أخرى؛ لكنها هذه المرة لا تدفع إنسانًا، بل تمسك شيئًا وتمنعه.

في أول السورة يدٌ تقسو.

وفي آخرها يدٌ تبخل.

وبين اليدين صلاةٌ لم تستطع أن تفتحهما للرحمة.

هذه هي المأساة التي ترسمها سورة الماعون: بقيت الصلاة في المنتصف، لكن أثرها لم يصل إلى الأطراف. لم تمنع اليد الأولى من دفع اليتيم، ولم تقنع اليد الأخيرة ببذل المعروف.

كأن السورة تسأل كل مصلٍّ:

هل عبرت صلاتك إلى يديك؟

هل جعلت اليد التي ترتفع بالتكبير تنخفض لرفع حاجة؟

هل جعلت اليد التي توضع في السجود تمتد بعده بالنفع؟

امتحانٌ متاح لكل إنسان

ليس كل إنسانٍ قادرًا على إقامة مشروعاتٍ كبرى، أو إنفاق أموالٍ كثيرة، أو تغيير أنظمة اجتماعية. لكن الماعون يجعل باب النفع مفتوحًا للجميع.

لا أحد فقيرٌ إلى درجة ألا يملك معروفًا.

قد يملك ابتسامةً لا تجرح.

أو كلمةً تدل.

أو دعاءً في الغيب.

أو مكانًا يفسحه.

أو علمًا يشرحه.

أو يدًا تحمل.

أو صمتًا يكف به أذى لسانه.

إن الله لم يجعل الخير حكرًا على أصحاب الثروات. وزَّع أبوابه على تفاصيل الحياة، حتى يستطيع كل إنسان أن يجد طريقًا إليه من موضعه.

والسؤال ليس دائمًا: ماذا أعطيت؟

قد يكون السؤال: ماذا كان يمكنك أن تعطي، ثم منعه لأن أحدًا لن يلومك؟

هناك تُختبر النفس بعيدًا عن البطولات.

ماعون القلب

إذا كان الماعون كل نفعٍ يسير، فإن أعظم ما يحتاج إليه الإنسان أحيانًا مساحةً صغيرة في قلب أخيه. أن يُسمع دون سخرية، ويُفهم دون محاكمةٍ متعجلة، ويُعامل دون أن يُذكر كل مرةٍ بضعفه.

كم من إنسانٍ لم يكن يطلب حلاً، بل كان يطلب ألا يُدفع.

وكم من محتاجٍ لم يكن يريد مألًا، بل بابًا لا يُغلق في وجهه.

وكم من غريبٍ أعادته كلمةٌ لطيفةٌ إلى الحياة.

إن بعض الناس يمنعون ماعون قلوبهم. لديهم قدرةٌ على المواساة، لكنهم يخلون بها. يعرفون كلمة الجبر، لكنهم يؤثرون الصمت أو يزيدون الجرح. يستطيعون أن يعذروا، لكنهم يتمسكون بلذة الإدانة.

والقلب الذي امتلأ بالله لا يكون مباحًا لكل استنزاف، لكنه لا يصبح حجرًا. يعرف كيف يضع الحدود من غير إذلال، وكيف يعتذر من غير قسوة، وكيف يحفظ نفسه دون أن يسحق غيره.

آخر كلمةٍ في السورة

من المدهش أن تكون «الماعون» آخر كلمة. لا تنتهي السورة بذكر العذاب، مع أنها توعدت بالويل، ولا تعود إلى تقرير عقدي مجرد، بل تتركنا أمام شيءٍ صغير في أيدينا.

كانها تقول: بعدما سمعت كل هذا، سيأتيك الامتحان في بيتك وطريقك وعملك. لن يُطلب منك دائمًا موقفٌ هائل، بل قد يطرق بابك إنسانٌ يسأل شيئًا يسيرًا. هناك ستظهر نتيجة القراءة.

فالقرآن لا يريد أن يظل معنىً جميلًا في الذهن. يريد أن يتحول إلى يدٍ لا تدفع، ولسانٍ يحض، وصلاةٍ تحضر، وقلبٍ يخلص، وماعونٍ يُبذل.

وهكذا تخرج السورة من المصحف لتسير في الأزقة وبين البيوت، وتدخل المخازن والمكاتب والقلوب، وتضع على الأشياء سؤالاً جديداً:

هل خلقت هذه النعمة لتنتهي عندك، أم لتبدأ منك؟

إن الماعون ليس نهاية السورة فقط؛ إنه بداية امتحانها في الحياة.

ومن هذه النهاية الصغيرة نطل على الحقيقة الجامعة: أن الرحمة ليست هامش الإيمان، وأن العبادة ليست مشهداً منفصلاً عن الإنسان، وأن الآخرة لا تُصدّق بالكلام وحده، بل يظهر التصديق بها حين تكون قادراً على المنع، فتختار أن تنفع.

لقد حان الآن أن نجمع خيوط الرحلة كلها: اليتيم، والمسكين، والصلاة، والإخلاص، والماعون؛ لنرى كيف صاغت سبع آياتٍ ميزاناً يزن إنسانية الفرد وأخلاق المجتمع.

الفصل الثامن

حين تصبح الرحمة برهان الإيمان

الفصل الثامن

حين تصبح الرحمة برهان الإيمان

بعد أن سرنا مع سورة الماعون من السؤال إلى اليتيم، ومن اليتيم إلى المسكين، ومن الجوع إلى الصلاة، ومن الصلاة إلى السهو والرياء، ثم انتهينا عند المعروف الصغير الذي تمنعه اليد؛ نستطيع الآن أن نرى السورة لا مجموعة آياتٍ متجاورة، بل بناءً محكمًا تتساند أجزاؤه لتقيم أمام الإنسان مرآةً كاملة.

في هذه المرآة لا يظهر الوجه الذي نختاره لأنفسنا، بل الوجه الذي تصنعه أعمالنا حين ننصرف عن أعين الناس.

فالإنسان يستطيع أن يختار كلماته، وأن يضبط هيئته، وأن يكتب لنفسه سيرةً مقنعة، لكنه لا يستطيع طويلاً أن يمنع ما في داخله من الظهور في طريقته مع الضعفاء، وفي موقفه من حاجات الناس، وفي عبادته حين يخلو، وفي الأشياء الصغيرة التي لا يراها أحد.

سورة الماعون لا تسأل المرء عن تعريفه النظري للإيمان، بل تضع إيمانه في مواقف محددة ثم تنتظر:

ماذا يفعل حين يملك القوة أمام يتيم؟

وماذا يشعر حين يرى جوع مسكين؟

وكيف يصلي حين يغيب الجمهور؟

وهل ينفع الناس فيما يستطيع؟

هذه الأسئلة لا تجعل الرحمة بديلاً من العقيدة، بل تكشفها. فالإيمان جذر، والرحمة بعض ثمره؛ والصلاة صلةً بالله، والنفع أحد آثارها؛ والإخلاص عمل القلب، لكنه يُرى في قدرة الإنسان على الاستمرار في الخير حين لا يسمع تصفيقاً.

السورة التي تربط السماء بالمائدة

تبدأ السورة بيوم الدين، وتنتهي بالماعون. تبدأ بمصير الإنسان الأبدي، وتنتهي بأداة صغيرة بين يديه.

وبينهما صلاة.

إنها هندسة مذهشة تصل أعلى الحقائق بأدق التفاصيل. فلا تبقى الآخرة فكرةً مؤجلةً إلى ما بعد الموت، ولا تبقى الصلاة لحظاتٍ معزولةً عن الحياة، ولا يبقى المتاع الصغير شأنًا تافهًا لا صلة له بالإيمان.

كل شيءٍ متصل.

الإيمان بالآخرة يغير نظرة الإنسان إلى القوة.

والصلاة تعيد تربيته على العبودية.

والعبودية الصادقة تحرره من عبادة الناس.

والإخلاص يفتح فيه باب النفع، حتى حين يكون المعروف صغيراً لا يصنع لصاحبه شهرة.

كأن السورة تنزل بالمعنى من السماء إلى المائدة: من التصديق بالجزاء إلى لقمة المسكين، ومن الوقوف بين يدي الله إلى الوقوف إلى جوار اليتيم، ومن السجود على الأرض إلى إعاره ما يحتاج إليه جارٌ يعيش عليها معك.

إن الدين الذي لا يصل إلى المائدة ظل فكرةً في الرأس.

والصلاة التي لا تصل إلى اليد بقيت حركةً في الجسد.

خِيطُ الْغِيَابِ فِي السُّورَةِ

إذا نظرنا إلى شخصيات السورة ومشاهدها وجدنا أن الغياب يجري بينها كخِيطٍ خفي: اليتيم غاب عنه أبوه.

والمسكين غاب عنه طعامه.

والمصلّي غاب عن صلاته.

والمرائي غاب عن إخلاصه.

والجار أو المحتاج غاب عنه الماعون.

لكن وراء هذه الغيابات كلها غيابٌ أخطر: غياب يوم الدين عن الضمير.

حين تغيب الآخرة عن وعي الإنسان، يتصرف كأن القوة التي في يده دائمة، وكأن المال ملكٌ خالص لا سؤال فيه، وكأن نظرات الناس هي المحكمة الأخيرة، وكأن العمل الذي لم يره أحد قد ضاع، وكأن الظلم الذي لم يعاقب عليه القانون قد انتهى.

ومن هنا تبدأ بقية الغيابات.

يغيب الأب، فلا يجد اليتيم في المجتمع من يقوم بحق الحماية.

ويغيب الطعام، فلا يجد المسكين من يحمل همّ جوعه.

وتغيب حقيقة الصلاة، فلا يبقى منها إلا موعدٌ مهمل أو صورةٌ معروضة.

ويغيب الإخلاص، فيتحول الناس من عبادٍ يُرحمون إلى جمهورٍ يُسترضى.

ويغيب التعاون، فتغلق الأشياء أبوابها داخل الملكية الفردية.

إن حضور الآخرة يعيد الغائب إلى المشهد. يقول لليتيم: لك ربٌّ لا يغيب. ويقول للمسكين: لك في أموال القادرين حق. ويقول للمصلّي: إن وقوفك منظورٌ إليه وإن لم يرك الناس. ويقول لصاحب الماعون: إن المعروف الصغير محفوظ، كما أن المنع الصغير محسوب.

العبادة التي تستعيد الإنسان

ليس الإنسان مخلوقًا كاملاً يدخل الصلاة ليعلن كماله، بل مخلوقٌ ضعيف يدخلها ليُصلح نقصه. يأتي إليها مثقلًا بالأنانية والغضب والخوف والتعلق بالناس، فتأخذ بيده كل يوم نحو مركزٍ أصح.

تقول له وهو يرفع يديه بالتكبير: اترك وراءك ما استولى عليك؛ فالله أكبر. وتقول له وهو يركع: ليست العظمة لك.

وتقول له وهو يسجد: أقرب طريقٍ إلى الرفعة يبدأ من الاعتراف بالعبودية. وتقول له وهو يقرأ: لست وحدك؛ أنت تقول (نَعْبُدُ) و(نَسْتَعِينُ) و(اهْدِنَا)، فتحمل في دعائك جماعة المؤمنين، ولا تنلق داخل «أنا» منفردة. وتقول له وهو يسلم: عد إلى العالم حاملاً السلام، لا الأذى.

بهذا المعنى تستعيد الصلاة الإنسان من أنانيته. لا تلغي فرديته، وإنما تضعها في موضعها الصحيح داخل العبودية والأخوة والمسؤولية.

فإذا دخل إليها صاحبها ليكبر في أعين الناس، فقد قاوم فعلها الأول. وإذا خرج منها مستعليًا على الضعيف، فقد قاوم فعلها الأخير.

لقد أرادت أن تحرره من ذاته، فاستخدمها لتزيين ذاته.

وهذه هي العبادة التي تفضحها السورة: عبادةٌ لم يسمح لها صاحبها أن تصنع منه إنساناً أصدق وأرحم؛ لأنه ظل يمسك بقلبه خارجها، كما يمسك بالماعون في آخر السورة ويمنعه.

هل تكفي الرحمة دون الصلاة؟

قد يقرأ قارئُ السورة فيظن أن الغاية هي السلوك الاجتماعي وحده، وأن إطعام المسكين والإحسان إلى اليتيم يغنيان عن العبادة. لكن هذا الفهم يقطع نصف السورة عن نصفها الآخر.

فالذي ذمَّ القسوة هو الذي توعد المصلين الساهين، لا الصلاة ذاتها. ولو لم تكن الصلاة عظيمة القدر لما كان السهو عنها والرياء فيها موجباً لذلك الوعيد الشديد.

السورة لا تقول: اتركوا الصلاة واعتنوا بالمسكين.

بل تقول: صلّوا لله حقّاً، حتى لا تتفصل عبادتكم عن الرحمة، ولا تتحول الصلاة إلى حجابٍ يخفي القسوة.

إن الإنسان لا يؤدي حق الله بمجرد النفع الاجتماعي، كما أنه لا يؤدي حقوق الخلق بمجرد التعبد الفردي. كلا الحقيين جاء به الوحي، وكلاهما يلتقيان في قلب العبودية.

فلا صلاح بغير توحيد، ولا كمال لتدينٍ يستهين بالإنسان.

إن اختزال الدين في الأخلاق الإنسانية وحدها يجعل الإنسان هو المركز، ويُغفل حق الخالق. واختزاله في شعائر لا أثر لها يجعل التدين صورةً مغلقةً عن مقاصد الوحي.

وسورة الماعون ترفض الاختزالين معًا.

إنها تبني إنسانًا يصلي لأنه عبدٌ لله، ويرحم لأنه عبدٌ لله، ويخلص لأنه لا يطلب بعمله إلا الله، وينفع لأن ما في يده أمانةٌ من الله.

هل تكفي الصلاة دون العدل؟

كما لا تغني الرحمة عن الصلاة، لا تتحول الصلاة إلى تعويضٍ عن الظلم. قد يتوهم الإنسان أن كثرة ركعاته تضعه في منزلةٍ تجعله أقل حاجةً إلى مراجعة حقوق الناس. لكنه حين يقف للصلاة يعلن العبودية لله، ومن العبودية أن يقف عند حدوده في الدماء والأموال والكرامات.

لا يملك أن يقول: لي عند الله سجودٌ طويل، ثم يدفع اليتيم.

ولا أن يقول: أنا من أهل الصفوف الأولى، ثم يأكل حق المسكين.

ولا أن يتحدث عن دموعه في القيام، ثم تكون دموع المظلومين من آثار يده. فالعبادة لا تمنح الظالم حصانةً من العدالة، بل تزيد معرفته بقبح ما ارتكب. وكلما كان بالله أعرف، كان من ظلمه أخوف.

إن رد الحقوق ليس أمرًا خارج التوبة يمكن الاستعاضة عنه بنوافل إضافية. الصلاة قد تفتح قلبه للاعتراف، والدعاء قد يمنحه قوة الرجوع، والسجود قد يكسر كبريائه؛ لكن ثمرة ذلك أن يخرج ليردّ الحق بقدر استطاعته، لا أن يبقى في المحراب هاربًا من صاحبه.

من أراد أن يعرف صدق بكائه بين يدي الله، فليُنظر إلى استعدادة لإيقاف بكاء من ظلمه.

الرحمة ليست شعورًا عابرًا

قد يتأثر الإنسان حين يرى طفلًا يتيماً أو مسكيناً جائعاً، ثم يمضي الأثر بعد دقائق. لكن الرحمة القرآنية لا تقف عند التأثر؛ إنها تتحول إلى موقف.

لا تدعّ اليتيم.

حضّ على طعام المسكين.

احفظ الصلاة.

أخلص العمل.

لا تمنع الماعون.

كلها معانٍ تتحرك. فالقلب الرحيم في القرآن ليس القلب الذي يحزن فقط، بل الذي يقاوم أن يبقى الحزن بلا يد.

وقد تكون المشاعر الصادقة بداية الخير، لكنها إذا لم تبحث عن طريقٍ إلى الفعل تحولت أحياناً إلى استهلاكٍ عاطفي. يبكي الإنسان أمام مشهد الألم، فيشعر أنه أدى ما عليه لأنه تألم، ثم يعود إلى حياته ولم يتغير شيء.

أما الرحمة الناضجة فتسأل بعد التأثير: ما الذي أستطيعه؟

قد لا تملك حل المشكلة كلها، لكنك تملك ألا تضيف إليها قسوةً جديدة. قد لا تطعم جميع المساكين، لكنك تستطيع إطعام واحد، أو الحظ على طعامه. قد لا تصلح نظاماً كاملاً، لكنك تستطيع ألا تستخدم موقعك في إذلال محتاج.

الرحمة لا تُقاس فقط باتساع الألم في القلب، بل بصدق الخطوة التي تخرج منه.

من الإشفاق إلى العدالة

لا يريد القرآن لليتيم والمسكين أن يبقيا موضوعين للشفقة فقط. فالإشفاق قد يلين لحظةً ثم يزول، وقد يجعل القادر يرى نفسه فوق المحتاج. أما العدالة فتري له حقاً وكرامةً لا تتوقفان على مزاج أحد.

اليتيم ليس محتاجاً إلى حناننا فحسب؛ له مالٌ يجب أن يُحفظ، وحقٌّ يجب أن يُصان، ومكانٌ كامل في المجتمع.

والمسكين لا يحتاج إلى لقمةٍ موسمية فحسب؛ له حق في نظامٍ لا يسرق جهده، ولا يحتكر رزقه، ولا يحول ضروراته إلى امتيازات.

ولهذا كان قوله: ﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ بالغ الدلالة. إن الطعام منسوبٌ إليه؛ ليس صدفةً تسقط من موائدنا، بل شيءٌ ينبغي أن يصل إلى صاحبه.

الرحمة تعطي الحق حرارةً إنسانية، والعدالة تمنع الرحمة من التحول إلى منة.

والمجتمع السليم لا يطلب من الفقير أن يظل منكسرًا حتى يستحق المساعدة، بل يصون حقه قبل أن يضطر إلى عرض كسره.

حين يصير الضعيف أداة اختبار

لماذا يختبرنا الله بمن لا يستطيع مكافأتنا؟

لأن العمل معه أكثر قدرةً على كشف حقيقة دوافعنا. الذي يحسن إلى قوي قد تختلط في إحسانه الرغبة والرغبة والمصلحة. أما اليتيم الذي لا يملك شيئاً، والمسكين الذي يحتاج إلى ما عندك، فلا يقدمان لك جزاءً يساوي ما تفعل.

هنا يصبح الإخلاص ممكناً على نحوٍ أشد صفاءً.

تفعل لأن الله يرى، لا لأن اليتيم سيرفع شأنك.

وتطعم لأن الجوع يؤلم إنساناً كرّمه الله، لا لأن المسكين سيصنع لك نفوذاً.

وتمنح الماعون لأن النفع خير، لا لأن الإعارة ستُكتب في سيرتك.

لكن النفس قد تسرق حتى هذا المقام، فتحول اليتيم إلى وسيلة لبناء الصورة، والمسكين إلى شاهدٍ على الكرم. ولهذا جاءت آية الرياء بين مشاهد الضعف والمنع؛ لتظهر الإحسان من استخدام المحتاج في خدمة المحسن.

إن الضعيف ليس درجًا نصح عليه إلى مكانة اجتماعية، بل أمانةٌ نصعد بخدمتها - إن أخلصنا - إلى رضا الله.

المجتمع الذي تصنعه السورة

لو سرت سورة الماعون في ضمير مجتمع، فماذا ستصنع؟

ستجعل اليتيم محاطًا بالحماية لا بالشفقة الجارحة.

والمسكين معروف الحال من غير أن يُفضح.

والغني شاكراً يرى المال أمانةً لا امتيازاً.

والمصلّي متواضعاً يخاف على عبادته من الغفلة والرياء.

والعالم باذلاً معرفته.

وصاحب المنصب ميسراً مصالح الناس.

والجار أميناً على متاع جاره.

والمحتاج حافظاً لما يُعار له.

لن تمنع السورة وحدها وجود الفقر والضعف؛ فالحياة دار ابتلاء، وتتفاوت فيها الأحوال. لكنها تمنع أن يتحول الضعف إلى تصريح بالإهانة، والفقر إلى عزلة، والعبادة إلى قناع، والملكية إلى قطيعة.

ستصنع مجتمعًا لا يشعر فيه الإنسان أن حاجته أخرجته من دائرة الكرامة.

فالعمران الحقيقي لا يقوم فقط على الطرق والجسور، بل على جسور خفية من الثقة والرحمة. وقد تكون مدينة فقيرة الموارد غنية بالإنسانية؛ لأن أهلها يتقاسمون القليل، وقد تكون أخرى مملوءة بالأشياء، لكن كل فرد فيها يموت وحيدًا خلف بابه.

المجتمع لا يكون غنيًا بما يملكه أفراده فقط، بل بما يستطيعون تداوله من النفع والمحبة والأمان.

ما الذي صنعه الصلاة بالمجتمع؟

السؤال الذي توجهه السورة إلى الفرد يمكن أن يوجه إلى الجماعة أيضًا.

إذا امتلأت المساجد، فهل قلّ الظلم؟

إذا ارتفعت أصوات التلاوة، فهل انخفض أنين المساكين؟

إذا كثر الحديث عن الدين، فهل شعر اليتيم بأمانٍ أكبر؟

إذا اتسعت مؤسسات الوعظ، فهل ضاقت مساحات الرياء والاستغلال؟

هذه الأسئلة لا تريد الطعن في المساجد أو التلاوة أو الدعوة، فهي من أعظم أبواب الخير؛ بل تريد أن تستنفر أثرها. فالخلل ليس في كثرة النور، وإنما في الحجب التي تمنع وصوله.

وقد يكون المجتمع متدينًا في مظهره، لكنه يعيد إنتاج القسوة داخل أنظمتها: يُكرم الغني لغناه، ويُهمش الفقير لفقره، ويجعل الخدمات حقوقًا لمن يملك الواسطة، ويترك اليتيم فريسةً لمن يأكل ماله.

هنا تصبح سورة الماعون نقدًا حضاريًا؛ لأنها ترفض أن تقاس سلامة المجتمع بعدد مظاهر التدين وحدها، وتضيف إلى الميزان سؤالًا عن الإنسان الذي يعيش تحت هذه المظاهر.

ما قيمة البنيان إذا بقي الضعيف خارجه؟

وما قيمة الخطاب إذا لم يصل الخبز؟

وما قيمة الصلاة في المجال العام إذا صارت وسيلةً للوجاهة، ولم تتحول إلى ضميرٍ يحرس العدل؟

التدين الذي يطلب من المظلوم الصبر

من صور الانفصال بين العبادة والرحمة أن يستخدم بعض الناس الخطاب الديني لتسكين المظلوم، لا لإيقاف الظالم. يكثر من تذكيره بأجر الصبر، ويقلّ حديثهم مع صاحب القوة عن وجوب العدل ورد الحقوق.

والصبر عبادة عظيمة، لكنه خطابٌ يُعين المظلوم على الثبات، لا أداة يمنحه بها الظالم إذناً للاستمرار. ولا يملك أحدٌ أن يفرض على الجريح صمتاً يحمي به صورة المعتدي.

سورة الماعون لا تعظ اليتيم بأن يتحمل الدّع، بل تدين الذي دعه. ولا تكتفي بأن تعد المسكين بأجر الجوع، بل تفضح من لا يحض على طعامه. ولا تخاطب صاحب الحاجة قائلةً: ازهد في الماعون، بل تحاسب من يمنعه. إنها تنقل المسؤولية من كتف الضعيف إلى ضمير القادر.

وهذا من عدل القرآن: لا يحول فضائل المظلومين إلى تسهيلاتٍ للظالمين. فالصبر لا يلغي واجب النصر، والعفة لا تسقط حق الفقير، والعفو فضيلةٌ لا يجوز انتزاعها بالإكراه ممن جرح.

الرحمة والقوة

قد يتوهم بعض الناس أن الرحمة ضعفٌ لا يصلح لعالمٍ تحكمه المنافسة. لكن سورة الماعون لا تدعو إلى عاطفةٍ رخوة تتخلى عن العدل والحكمة؛ بل إلى قوةٍ منضبطةٍ بالإيمان.

فحماية اليتيم تحتاج إلى قوة.

وإيصال الطعام إلى المسكين قد يحتاج إلى مقاومة الاحتكار والفساد.

وحفظ الصلاة يحتاج إلى مجاهدة النفس.

ومقاومة الرياء تحتاج إلى شجاعةٍ داخلية.

وبذل الماعون مع حفظ الحقوق يحتاج إلى ثقةٍ ومسؤولية.

الرحمة ليست عجزاً عن الحزم، بل رفضاً لاستخدام القوة في سحق الضعيف.
وقد يكون الرحيم حازماً في حماية الحقوق، شديداً على من يأكل مال اليتيم،
واضحاً مع من يحول قوت الناس إلى وسيلة ابتزاز.

القسوة سهلة؛ فهي رد فعلٍ سريع من نفسٍ ضاقت. أما الرحمة الحكيمة فتحتاج
إلى صبرٍ وفهمٍ وقدرةٍ على ضبط الذات.

ليس قوياً من استطاع دفع اليتيم؛ القوي من استطاع ردّ القسوة عن يده حين
لا يوجد من يمنعه.

الأشياء الصغيرة بوصفها تدريباً على المصير

كل مرةٍ نبذل فيها ماعوناً ندرّب أنفسنا على الخروج من سجن الذات. وكل
مرةٍ نمنعه بلا عذرٍ نبني في الداخل جداراً جديداً.

قد نظن أن المصائر الأخلاقية تُصنع في القرارات الكبرى وحدها، لكن
الإنسان يتكون بالتكرار. المواقف الصغيرة تحفر فيه طرقاً تسلكها النفس
تلقائياً عند اللحظات الكبيرة.

من اعتاد التيسير في القليل، كان أقرب إلى البذل في الكثير.

ومن اعتاد الاعتذار عن كل معروف، صار البخل جزءاً من تعريفه لنفسه.

ومن راقب الله حين لا يراه أحد في عملٍ صغير، قويت فيه عضلة الإخلاص حين يكبر العمل.

ومن صان كرامة محتاجٍ واحد، تعلم كيف يرى الإنسان قبل حاجته.

لهذا ختمت السورة بالماعون؛ فالإيمان لا يُختبر دائماً على منصات التاريخ، بل في مطبخٍ وبيتٍ ومكتبٍ وطريق. هناك نتدرب كل يوم على الشخص الذي سنقف به بين يدي الله.

ما الذي يبقى من الإنسان؟

يترك الإنسان عند موته أشياءه كلها. لا يحمل الإناء الذي منع، ولا المال الذي حبس، ولا الصورة التي صنعها في أعين الناس، ولا الألقاب التي أحاط بها اسمه.

لكنه يحمل معنى ما فعل بهذه الأشياء.

الأداة تبقى أو تبلى، لكن إعارتها قد تبقى عملاً.

والطعام يُؤكل وينتهي، لكن إشباع الجائع لا ينتهي أثره في الميزان.

والكلمة تُنسى، لكن القلب الذي جُبر بها قد يدعو لصاحبها بعد غيابه.

والصلاة تتقضي حركاتها، لكن إخلاصها يسبق العبد إلى الآخرة.

إننا لا نأخذ الأشياء معنا، لكننا نأخذ السيرة الأخلاقية التي كتبناها بها.

والإنسان الذي ملأ حياته نفعًا قد يرحل خفيف الملكية، ثقيل الأثر. أما الذي منع كل شيء خوفًا من النقص، فقد يحافظ على ممتلكاته حتى اللحظة الأخيرة، ثم يخرج منها كلها دون أن يحمل منها إلا حساب المنع.

حين تكون الرحمة تصديقًا عمليًا

الرحمة برهان الإيمان؛ لأنها تعني أنك تصرفت وفق حقيقة لا تراها العين وحدها:

رأيت في اليتيم أمانةً لله، وإن لم ترَ أبًا يدافع عنه.

ورأيت في طعامك حقًا للمسكين، وإن لم يملك قوةً ينتزع به.

ورأيت علم الله بصلاتك، فاستغنيت عن عيون الناس.

ورأيت الجزاء على المعروف، فلم تحتقر الماعون.

إنك في كل موقفٍ من هذه المواقف تعاملت مع الغيب كأنه حاضر. وهذا هو التصديق حين يتحول من معلومةٍ إلى حياة.

أما المكذب، فإنه لا يرى إلا الظاهر: يتيمٌ بلا قوة، ومسكينٌ بلا مقابل، وصلاةٌ لا قيمة لها إن لم يرها الناس، ومعروفٌ صغير لا يستحق البذل.

الإيمان يضيف إلى المشهد ما غاب عن عينه: الله، والحساب، والكرامة، والأمانة، والجزاء.

وحين يدخل هذا الغيب إلى الوعي، يتغير السلوك المرئي.

لا تبحث عن المكذب بعيداً

من السهل أن نقرأ السورة ثم نضعها على وجه رجلٍ آخر. نتذكر قاسياً عرفناه، أو مرأياً رأيناه، أو غنياً بخيلاً، ثم نخرج راضين لأن الآيات كشفتهم.

لكن القرآن لم يُنزل ليمنحنا أدواتٍ متقنة لإدانة الآخرين وحدهم. إنه يخاطب كل قلبٍ يريد الهداية، ويطلبه أن يرى نصيبه من الخلل قبل أن يحصي نصيب الناس.

قد لا ندع يتيمًا بأيدينا، لكننا ندفع إنساناً ضعيفاً بكلماتنا.

وقد نطعم مسكيناً مرةً، لكننا لا نشارك في صناعة مجتمعٍ يحض على الطعام.

وقد نحافظ على الصلاة، لكن جزءاً من حياتنا ما يزال ساهياً عن عهدها.

وقد نخلص في أعمالٍ ونلتفت إلى الناس في أخرى.

وقد نبذل أشياء ونمنع ما كان يسعنا بذله.

السورة ليست ختمًا نحكم به على هوية إنسان، بل ميزانٌ نراجع به اتجاهنا. وكلما رأينا في أنفسنا صفةً من صفات أهلها، لم نياس، بل عرفنا موضع العمل والتوبة.

المؤمن لا يدّعي أنه تجاوز السورة؛ بل يظل يعود إليها ليصلح ما تكشفه.

السبع الآيات التي تعيد بناء الضمير

يمكن أن نقرأ السورة كلها بوصفها رحلة إعادة بناء: ﴿أَرَأَيْتَ﴾: افتح عينيك.

﴿يَكْذِبُ بِالَّذِينَ﴾: فتش عن حضور الآخرة.

﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾: راقب قوتك أمام الضعيف.

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾: لا تجعل جوع غيرك خارج مسؤوليتك.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾: لا تحتم بصورة العبادة.

﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: استعد روح اللقاء.

﴿هُمْ يُرَاءُونَ﴾: حرر قلبك من الجمهور.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: افتح يدك للنفع.

إنها لا تكتفي بكشف الإنسان، بل ترسم له طريق الخروج:

من الغفلة إلى الرؤية.

ومن التكذيب العملي إلى استحضار الحساب.

ومن القسوة إلى الجبر.

ومن اللامبالاة إلى المسؤولية.

ومن الصلاة الجوفاء إلى العبودية الحية.

ومن الرياء إلى الإخلاص.

ومن المنع إلى النفع.

وهذه ليست إصلاحاتٍ منفصلة؛ إنها تحولاتٌ في قلبٍ واحد. فإذا رأى الله حقًا، رأى الإنسان حقًا. وإذا عظم يوم الدين، صغرت في عينه مكاسب الظلم. وإذا ذاق معنى السجود، لم تعد القوة رخصةً للاستعلاء.

السؤال الذي ينتظر الجواب في الحياة

بدأت السورة بسؤال: (أَرَأَيْتَ)؟

لكنها لم تمنحنا جوابًا نظريًا ننتهي من حفظه. جعلت الجواب ممتدًا في الحياة. كلما وقف أمامك ضعيفٌ تجدد السؤال.

وكلما علمت بجائعٍ تجدد السؤال.

وكلما سمعت النداء إلى الصلاة تجدد السؤال.

وكلما تحرك قلبك لنظر الناس تجدد السؤال.

وكلما احتاج إنسانٌ إلى نفعٍ في يدك تجدد السؤال.

لن تنتهي قراءة سورة الماعون عند بلوغ آخر آية؛ هناك تبدأ قراءتها العملية. ستدخل معك إلى بيتك، وصلاتك، ومالك، وعلاقاتك. ستراقب الفارق بين ما تقوله عن نفسك وما تصنعه في اللحظات التي لا تحتفل بها الذاكرة.

وفي كل مرةٍ تختار أن تجبر بدل أن تدفع، وأن تطعم بدل أن تغفل، وأن تخلص بدل أن تستعرض، وأن تنفع بدل أن تمنع، تكون قد كتبت جوابًا جديدًا عن سؤال السورة.

ليس بالحروف، بل بالإنسان الذي أصبحت عليه.

إن الرحمة ليست زينة الإيمان بعد اكتماله؛ إنها أحد المواضع التي تظهر فيها حياته. والصلاة ليست حركة ترفع الإنسان في نظر المجتمع؛ إنها عهدٌ يعيده إلى مقام العبودية. والماعون ليس شيئًا أصغر من أن يذكره الوحي؛ لأن القلب يُعرف أحيانًا من أصغر أبوابه.

وهكذا تجمع السورة رسالتها في سؤالٍ يبقى مفتوحًا داخلنا:

إذا كانت عبادتك لم تجعلك أصدق مع الله، وأرحم بعباده، وأسرع إلى النفع، فما الذي بقي منها في قلبك بعد أن انتهت حركاتها؟

ومن هنا نصل إلى خاتمة رحلتنا، وإلى السؤال الذي لا ينبغي لقارئ سورة الماعون أن يخلق الكتاب قبل أن يقف أمامه طويلاً:

ماذا صنعت عبادتك بإنسانيتك؟

الخاتمة

ماذا صنعت عبادتك بإنسانيتك؟

تُغلق سورة الماعون ألفاظها عند قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

لكن معناها لا يُغلق.

يبقى مفتوحًا في كل بيتٍ له جار، وكل طريقٍ يعبره محتاج، وكل مجتمعٍ يعيش فيه يتيم، وكل مائدةٍ ليست بعيدةً عن جائع، وكل قلبٍ يؤدي العبادة ثم يعود إلى امتحانه بين الناس.

إنها سورةٌ قصيرة، لكنها لا تسمح بقراءةٍ قصيرةٍ الأثر. فما إن يفرغ القارئ منها حتى يشعر أن الآيات نقلته من أوسع حقائق الغيب إلى أدق تفاصيل الحياة، وجعلته يرى أن المسافة بين التصديق بيوم الدين وإعارة إناءٍ ليست بعيدةً كما كان يظن.

فالإيمان الذي يسكن القلب يعيد ترتيب اليد.

والصلاة التي تحضر فيها الروح تعيد ترتيب الحياة.

والآخرة التي تستيقظ في الضمير تجعل الإنسان أكثر حذرًا من ظلم ينساه الناس ولا ينساه الله.

السورة التي تبدأ بعقيدة وتنتهي بأداة

بدأت السورة بالتكذيب بالدين، وانتهت بالماعون.

في البدء حقيقةٌ كبرى تتعلق بالله والجزاء والمصير، وفي الختام شيءٌ صغير تتداوله الأيدي. وبينهما انكشفت العلاقة العميقة بين ما يعتقد الإنسان وما يصنعه.

ليس الاعتقاد صندوقًا مغلقًا داخل العقل؛ إنه يمد جذوره إلى نبرة الصوت، وحركة اليد، وطريقة الصلاة، ونظرة المرء إلى ممتلكاته. وكلما كان الإيمان أصدق حضورًا، ظهر أثره في مواضع ربما لا يلتفت إليها الناس.

فالذي يوقن بيوم الدين لا يرى اليتيم طفلًا بلا مدافع، بل صاحب حقٍّ له ربٌّ يدافع عنه.

ولا يرى المسكين جسدًا زائدًا على المجتمع، بل إنسانًا جعل الله له في الرزق نصيبًا.

ولا يرى الصلاة مناسبةً لتحسين صورته، بل مقامًا تسقط فيه الصور كلها.

ولا يرى الماعون شيئًا تافهًا، بل فرصةً مرّت بيده لتبقى له عند الله.

أما حين تغيب الآخرة، فإن العالم ينكمش إلى ظاهره: القوة هي الحقيقة، والمصلحة هي الميزان، والجمهور هو الحكم، وما لا يراه الناس لا قيمة له.

وهنا تبدأ القسوة.

طفلٌ يقفُ عند باب العقيدة

ما كان اليتيم في السورة موضوعًا اجتماعيًا أُضيف إلى الكلام عن الدين؛ لقد كان الامتحان الذي كُشفت به حقيقة التدين.

يقف الطفل عند الباب، لا يحمل حجةً فلسفية ولا يخوض نقاشًا في البعث، لكنه يسأل بصمته:

هل تؤمن حقًا أن الله يراني؟

هل تؤمن أن ضعفي لا يُسقط كرامتي؟

هل تؤمن أن يدي الصغيرة التي لا تستطيع دفع ظلمك سيأتي يومٌ يشهد الله لها فيه؟

لا يحتاج اليتيم إلى أن يسمع جوابك، لأن يدك ستجيبه.

إما أن تمتد لتجبر، وإما أن تمتد لتدفع، وإما أن تبقى ساكنةً حيث كان يجب عليها أن تتحرك. وفي الحالات كلها يتكلم ما في القلب.

إننا لا نعرف أنفسنا تمامًا في المواقف التي نتهياً لها، بل في اللحظات التي يقف فيها أماننا من لا نستفيد من إكرامه ولا نخشى عقوبة الإساءة إليه.

هناك يظهر مقدار إيماننا بأن الله عينًا لا تنام، وعدلاً لا يضيع عنده الضعفاء.

المائدة التي يحضر فيها الغائبون

ثم تضع السورة المسكين عند المائدة، لا على طرفها فحسب، بل في اسم طعامها: ﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

إنه غائبٌ عن المجلس، لكنه حاضرٌ في حق النعمة. قد لا تجلس صورته أمامنا، لكن حاجته ينبغي أن تجلس في ضميرنا. وحين نمد أيدينا إلى الطعام، يجب أن يبقى في القلب مكانٌ لمن لا يجد ما نأكله.

لا تريد السورة أن تحوّل النعمة إلى حزن، بل أن تحولها إلى شكر. والشكر ليس امتناعاً عن الطيبات، وإنما اعترافٌ بأن ما في اليد فضلٌ لله، وأن من حق الفضل أن يتحرك.

المائدة الشاكرة لا تغلق أبوابها كلها.

تعرف أن في الخارج إنساناً قد تكون لقمةٌ يسيرة عندها يوماً كاملاً عنده. فلا تمنّ عليه، ولا تستعرض شبعها أمام جوعه، ولا تجعل طعامه ثمنًا لخضوعه. تعطيه ما جعله الله حقاً له، وتحمد الله أن اختار يدها طريقاً لوصول الرزق.

الصلاة الواقفة بين يدين

تظهر في السورة يدان: يَدٌ تدعّ اليتيم في أولها.

ويَدٌ تمنع الماعون في آخرها.

وبين اليدين تقف الصلاة.

كان ينبغي لهذه الصلاة أن تعيد تربية اليد الأولى، فلا تدفع ضعيفاً، وأن تفتح اليد الأخيرة، فلا تمنع معروفاً. لكن الصلاة بقيت معزولةً عن الأطراف؛ لم يجر معناها في الجوارح، ولم تعبر من هيئة السجود إلى أخلاق الحياة.

وهنا تقع المأساة كلها.

ليس الخلل أن الإنسان لم يعرف كيف يركع، بل أنه ركع ولم يتعلم من الركوع أن العظمة لله.

وليس الخلل أنه لم يضع جبهته على الأرض، بل أنه رفعها وفي قلبه كبرٌ يدفع به عباد الله.

وليس الخلل أنه لم يقل السلام، بل أنه قاله ثم خرج يؤذي من عن يمينه وشماله.

إن الصلاة ليست مسؤولةً عن هذا الانفصال؛ صاحبها هو الذي أقام حولها جداراً، ومنع نورها أن يدخل إلى المواضع التي يحب ظلامها في نفسه.

فلو سمح لها أن تعمل فيه حقاً، لبدأت بتفكيك الأنا المتضخمة، ولجعلته يرى قوته أمانة، وماله استخلاقاً، والناس عباداً لله لا درجاتٍ تحت قدميه.

ليست العبرة أن تبكي في المحراب وحده

للدمة في الصلاة مقامها الجميل حين تخرج من قلبٍ خاشع، لكنها ليست النهاية. فقد يبكي الإنسان عند التلاوة، ثم لا يبكي قلبه لجائع. وقد ترقّ مشاعره عند سماع أخبار الرحمة، ثم يقسو في أول خصومةٍ تمس حظ نفسه.

العبرة ليست أن تتأثر لحظة، بل أن يغيّر التأثر طريقة وجودك.
أن تصبح دمعتك في المحراب ماءً يطفئ شيئاً من قسوتك خارجه.
أن يصير خوفك من الله عدلاً مع من لا يخافك.
أن يتحول رجاؤك في رحمته إلى رحمة بمن وضعهم في طريقك.
أن يجعلك اعترافك بفقرك إليه أكثر فهماً لفقر الآخرين.
إن أجمل الخشوع ما ظهر بعد الصلاة في تواضع لا يتكلف صاحبه الحديث عنه.
وأصدق التلاوة ما منعت قارئها من ظلم إنسانٍ كان قادراً على ظلمه.
وأقرب السجادات إلى تمام أثرها تلك التي ينهض منها الإنسان أقل استعلاءً،
وأكثر استعداداً للجبر.

العبادة لا تصنع ملائكة

لا تطالب سورة الماعون المصلّي بأن يصبح معصوماً من الضعف، ولا تجعل كل تقصيرٍ دليلاً على أن عبادته لا قيمة لها. الإنسان يخطئ، ويغفل، ويبخل أحياناً، ويتسلل إلى قلبه حب المديح، ثم ينتبه ويتوب ويجاهد.
الفرق ليس بين إنسانٍ كامل وإنسانٍ ناقص؛ فالكمال لله وحده.
الفرق بين من تؤلمه الفجوة بين صلاته وسلوكه فيحاول ردمها، ومن يستخدم الصلاة لتغطية الفجوة حتى لا يراها.

الأول تقول له الصلاة كل يوم: عد.

والثاني يقول لنفسه: لا حاجة إلى العودة، فأنا من المصلين.

المؤمن قد يسهو في الصلاة، لكنه لا يرضى بالسهو عنها.

وقد يفرح بثناء الناس، لكنه يخاف أن يستولي الثناء على مقصده.

وقد يتردد في العطاء، لكنه يقاوم انقباض نفسه.

وقد يقسو، لكنه لا يسمي القسوة فضيلةً ليحميها من التوبة.

الصلاة الحية لا تمنع كل سقوط، لكنها تمنع صاحبها من تحويل السقوط إلى بيت.

التدين الذي يحرس صورته

أشد ما تخشاه السورة ليس الذنب الذي يعرف صاحبه أنه ذنب، بل التدين الذي يبني حول الخطأ حصناً من المظاهر.

حينئذٍ لا يعود المرء قادرًا على الاعتذار؛ لأن اعترافه سيخدش صورة الصالح التي صنعها. ولا يقبل نصحاء؛ لأنه يتوهم أن عبادته ترفعه فوق المراجعة. ولا ينصف ضعيفًا؛ لأنه اعتاد أن يفسر كل اعتراض على سلوكه بأنه اعتراض على الدين.

وهكذا يُستخدم الدين لحماية النفس من حكم الدين.

لكن سورة الماعون تهدم هذا الحصن من داخله. لا تتخذ بوقوف المصلّي، بل تسأل عن سهوه وإخلاصه وما منعه. تنزع عن الصورة سلطتها، وتعيد الإنسان إلى حقيقة واحدة: الله يعلم ما في القلب، ويرى ما تصنع اليد.

ليس الصالح من نجح في إقناع الناس بأنه لا يخطئ، بل من قاده إيمانه إلى الرجوع كلما أخطأ.

وقد يكون الاعتذار الذي يحفظ كرامة مظلومٍ أصدق أثرًا للصلاة من مظاهر كثيرة لا تكلف النفس أن تتخلى عن كبريائها.

ماعونٌ قد ينقذ إنساناً

نحتقر الأشياء الصغيرة لأننا ننظر إلى حجمها في أيدينا، ولا ننظر إلى حجم الحاجة إليها عند غيرنا.

معلومةٌ تعرفها في لحظة قد تختصر على شخصٍ شهراً من الحيرة.

أداةٌ لا تستعملها اليوم قد تحفظ لعاملٍ يوم رزقه.

مركبةٌ تملكها قد تبلغ بمريضٍ موضع العلاج.

كلمةٌ لطيفة قد تمنع قلباً من الانهيار.

إصغاءٌ قصير قد يشعر وحيداً بأن وجوده لا يزال مرئياً.

الماعون صغيرٌ عند مالكة، لكنه قد يكون كبيراً عند محتاجه.

وهذه قاعدة في الرحمة: لا تزن المعروف بما كلفك وحدك، بل بما صنعه في حياة من وصل إليه. قد يكون يسيرًا في حسابك عظيمًا في ساعته.

وفي المقابل، لا تحتقر المنع لأنه تعلق بشيءٍ صغير. فالسؤال الأخلاقي ليس قيمة الأداة، بل طبيعة القلب الذي ضاق بنفعٍ لا يضره.

ربّ إناءٍ صغير فضح روحًا كبيرة الادعاء ضيقة العطاء.

حين يصبح الإنسان ماعونًا للخير

أجمل ما يمكن أن تصنعه السورة في قارئها أن يتحول هو نفسه إلى طريقٍ للنفع.

لا ينتظر من الناس أن يأتوا إليه في كل مرة، بل يتعلم أن يرى. يستيقظ فيه سؤال البداية: (أَرَأَيْتَ)؟

فيرى اليتيم قبل أن يُدعّ.

ويرى المسكين قبل أن يضطر إلى كشف حاجته.

ويرى الخلل في صلاته قبل أن تتحول إلى عادةٍ ميتة.

ويرى حركة الرياء في قلبه قبل أن تستولي على العمل.

ويرى الماعون في يده قبل أن يغلق عليه أصابعه.

الإنسان النافع ليس من يملك حلاً لكل شيء، وإنما من لا يجعل عجزه عن فعل كل الخير سببًا لترك الخير الذي يستطيع.

يعرف حدوده، لكنه لا يعبدها.

يقول: لا أستطيع هذا، فماذا أستطيع؟

لا أملك المال، فهل أملك دلالة؟

لا أستطيع إزالة الألم كله، فهل أستطيع ألا أزيده؟

لا أملك إطعام المدينة، فهل أستطيع مشاركة وجبة؟

لا أستطيع تغيير الماضي، فهل أستطيع جبر شيء من أثره؟

هكذا يتحول الإيمان من شعورٍ بالعجز أمام اتساع المأساة إلى حركةٍ ممكنة في موضع الإنسان.

اليتم ليس هامشاً

حين يجعل القرآن اليتيم دليلاً على التكذيب بالدين، فإنه يعلن أن الإنسان الضعيف ليس هامشاً في المشروع الإيماني. لا يمكن بناء مجتمعٍ صالح ثم تأجيل كرامة أضعف أفراده إلى مرحلة لاحقة.

اليتم ليس بنداً تكميلياً بعد اكتمال البناء؛ هو أحد الامتحانات التي نعرف بها صلاح البناء نفسه.

والمسكين ليس رقمًا نزين به تقارير الإحسان؛ هو إنسانٌ يكشف جوعه طبيعة توزيع الرحمة والعدل.

والعامل الضعيف، والمريض العاجز، والغريب الذي لا سند له، وكل صاحب حقٍّ لا يملك قوةً توصله إليه؛ هؤلاء يقفون عند أطراف سورة الماعون، وإن بقي لفظ اليتيم والمسكين على دلالتهما الأصلية.

فروح السورة تعلّمنا أن قوة المجتمع الحقيقية لا تظهر في طريقة احتفائه بأصحاب القوة، بل في قدرته على صيانة من لا يستطيعون إجباره على صيانتهم.

حين يكون الجائع اتهامًا للصمت

لم تقل السورة إن صاحبها لا يملك الطعام، بل كشفت أنه لا يحض عليه. وهذا يعني أن الصمت نفسه قد يصبح موقفًا.

نحن نظن أحيانًا أن المسؤولية تبدأ حين نفعّل الشر، لكن القرآن يوسعها لتشمل الخير الذي كان ينبغي أن نحض عليه، والضمير الذي كان ينبغي أن نوقظه، واللامبالاة التي تركت المحتاج وحيدًا.

لا يستطيع كل إنسان أن يحل مشكلة الجوع، لكن كل إنسان يستطيع أن يرفض تطبيعها في قلبه.

أن يظل الجائع إنسانًا، لا جزءًا من المنظر.

أن يبقى الألم مستقرًا للضمير، لا خبرًا يتكرر حتى يفقد معناه.

أن نبحث عن الممكن بدل أن نستخدم استحالة الحل الكامل ذريعةً للتخلي عن الجزء الممكن.

إن المجتمع لا يموت حين يقل الطعام وحده، بل حين يتوقف الشعبان عن الشعور بأن الجائع أخوه.

خبيئة بينك وبين الله

في مواجهة الرياء، تدعونا السورة ضمناً إلى بناء مساحةٍ لا يدخلها الناس. فالقلب الذي اعتاد الجمهور يحتاج إلى عملٍ يربّيه على الاكتفاء بعلم الله.

اجعل لك معروفاً لا يعرف صاحبه من أين جاءه.

ودعاءً لا تعلم به إلا أنت وربك.

وعملاً تخدم به فكرةً نافعةً دون أن تضع اسمك في واجهتها.

وصدقةً تنساها بعد أن تخرج من يدك.

وجبراً لا ترويه حين تجلس مع الناس.

هذه الأعمال لا تصغر لأنها خفيت، بل قد تكون أكثر ما في حياتك ظهوراً في السماء.

إن الإنسان يحتاج إلى شاهدٍ داخلي على أنه يستطيع أن يفعل الخير دون أن يتغذى من التصفيق. وكل خبيئةٍ صالحةٍ تحرر جزءاً من قلبه، وتقول له: يكفيك أن الله يعلم.

ما أراح القلب حين تكون السماء جمهوره الوحيد.

لا تمنع ما لا تملك

تعلمنا السورة البذل، لكنها لا تطالب الإنسان بأن يستنزف نفسه فيما لا يستطيع، ولا أن يعير ما يترتب على إعارته ضررٌ معتبر، ولا أن يفتح حياته بلا حدود.

فالرحمة لا تلغي الحكمة، والبذل لا يعني الفوضى، والحقوق متبادلة. للمُعير حق الحفظ والرد، ولصاحب الوقت حق تنظيمه، ولصاحب السر حق صيانتها، وللإنسان حق أن يقول «لا» حين تكون «لا» عدلاً.

المذموم هو أن تتحول «لا» إلى طبيعةٍ أمام كل نفع، وأن يتخذ الحذر ذريعةً للبلخ، وأن يفرح القلب بإغلاق الأبواب.

يمكنك أن ترفض طلباً، لكن لا تدفع صاحبه بغلظة.

ويمكنك أن تعجز عن إعطاء الشيء، لكن تدله على بديل.

ويمكنك أن تحفظ حدودك، لكن دون أن تحولها إلى أسوارٍ من الاحتقار.

الماعون ليس إلغاءً للملكية، بل تهذيبٌ لها؛ حتى لا يصبح ما نملكه سبباً لانقطاعنا عن حولنا.

السؤال الذي ينبغي أن نحمله معنا

بعد هذه الرحلة كلها يبقى السؤال: ماذا صنعت عبادتك بإنسانيتك؟

هل جعلتك أكثر انتباهاً لمن لا يملكون صوتاً مرتفعاً؟

هل علمتك أن القوة ليست حقًا في الإيذاء، بل قدرة على الحماية؟

هل جعلتك ترى في مالك أمانةً، وفي حاجة الفقير حقًا؟

هل حررتك من عبودية السمعة؟

هل صار وجودك أخف على الناس أذىً، وأكثر نفعًا؟

لا نطرح هذه الأسئلة لنحكم أن العبادة لم تُقبل؛ فالقبول من علم الله، ولا يملكه أحد لنفسه أو لغيره. وإنما نطرحها لنبحث عن مواضع الثمرة، ولنعرف أين انقطع الطريق بين ما نؤديه وما نعيشه.

قد تكون الإجابة مؤلمة، لكنها رحمة. فأن ترى الخلل الآن خيرٌ من أن تراه يوم الدين، وأن تشعر بفقر صلاتك إلى الروح خيرٌ من أن تطمئن إلى صورتها حتى تنقضي الحياة.

السؤال الذي يوجع الضمير قد يكون الباب الذي ينقذه.

سورة الماعون في يوم واحد

يمكن أن نعيش السورة كلها في يومٍ عادي.

نستيقظ على نداء الصلاة: هل نحضر أم نسهو؟

نخرج إلى الناس: هل نرى الضعيف أم نتجاوزه؟

نجلس إلى الطعام: هل نتذكر صاحب الطبق الفارغ؟

نعمل أمام الآخرين: هل نطلب الحق أم نطلب الصورة؟

يسألنا إنسانٌ منفعَةً صغيرة: هل نيسر أم نمنع؟

لا تحتاج السورة إلى أحداثٍ استثنائية كي تظهر. إنها تسكن اليوم المتكرر، ولذلك لا يستطيع أحد أن يقول إن امتحانها بعيد عنه.

كل يوم يمرّ بنا شيءٌ من الماعون.

وكل يوم تتعرض نياتنا لنظر الناس.

وكل يوم نملك قدرًا من القوة أمام شخصٍ أضعف.

وكل يوم تقف الصلاة بين ما كنا عليه وما ينبغي أن نصير إليه.

إنها سورة الحياة اليومية؛ تزن الإنسان لا في لحظة البطولة النادرة، بل في الساعات التي يظن أنها لا تُكتب.

آخر الطريق يعود إلى أوله

نصل إلى آخر الكتاب، فنجد أنفسنا أمام الكلمة الأولى من السورة: (أَرَأَيْتَ)؟

الآن ربما تغير معنى الرؤية.

لم تعد رؤية المكذّب بالدين وحده، بل رؤية أنفسنا، ورؤية اليتيم، ورؤية الجوع، ورؤية الصلاة حين تفقد روحها، ورؤية الجمهور حين يتسلل إلى القلب، ورؤية النعمة الصغيرة حين تنتظر أن تتحول إلى معروف.

لقد فتحت السورة أعيننا على العلاقة بين الأشياء التي فرقتها العادة:

بين العقيدة واللقمة.

بين الصلاة والكرامة.

بين السجود والتواضع.

بين الإخلاص والحرية.

بين الملكية والتكافل.

وبعد أن نرى، لا يجوز أن نعود إلى العمى القديم. فالمعرفة عهد، والآية التي كشفت لنا موضعاً من القسوة تطالبنا أن نبدأ إصلاحه.

ليس المطلوب أن نخرج من الكتاب معجبين بجمال المعاني، بل أن يخرج معنا يتيمٌ لا ندعه، ومسكينٌ لا ننساه، وصلاةٌ نحاول أن نحضر فيها، وعملٌ نخفيه لله، وماعونٌ نعرف كيف نبذله.

الكلمة الأخيرة

سورة الماعون ليست سورة الأشياء الصغيرة، بل سورة الحقائق الكبرى حين تمتحنها الأشياء الصغيرة.

إنها تقول إن الإيمان لا يعيش في الجمل وحدها، وإن الصلاة ليست مأمناً لمن حوّلها إلى صورة، وإن أضعف الناس قد يكونون أقوى الشهود على أخلاقنا، وإن المعروف لا يصغر حين يصدر عن قلبٍ مخلص في ساعة حاجة.

وتقول إن الله الذي ذكر يوم الدين هو الذي ذكر طعام المسكين، وإن الله الذي تواعد على السهو عن الصلاة هو الذي لم يترك الماعون خارج خطابه، وإن الطريق إليه لا يمر بالمحراب وحده معزولاً عن الخلق، بل يمر بالمحراب الذي يعيد صاحبه إلى الخلق أصدق قلباً، وأظهر يداً، وأقل كبراً، وأكثر نفعاً.

فإذا أردت أن تعرف ما أبقت الصلاة فيك، فلا تنظر فقط إلى عدد المرات التي سجدت فيها، بل انظر إلى مقدار ما مات فيك من الاستعلاء.

ولا تنظر فقط إلى دموعك عند التلاوة، بل إلى الدموع التي منعت يدك أن تسقط من عيون الضعفاء.

ولا تنظر فقط إلى ثناء الناس على صلاحك، بل إلى العمل الذي بقي حين غاب الثناء.

ولا تنظر فقط إلى ما تملك، بل إلى الخير الذي عبر من ملكك إلى حياة الآخرين.

هناك تتجلى بعض آثار العبادة.

وهناك تجيب الحياة عن سؤال السورة.

وهناك يصبح السجود أكثر من انحناء الجسد؛ يصبح قياماً بحق الله، ورحمةً بعباده، ومقاومةً للرياء، وفتحاً لأبواب النفع.

وحينئذٍ لا تكون الصلاة قد انتهت بالتسليم؛ بل تكون قد بدأت تمشي على الأرض في هيئة إنسان.

إنسانٍ لا يدفع اليتيم.

ولا ينسى المسكين.

ولا يسهو عن عهده مع الله.

ولا يجعل الناس قبلة قلبه.

ولا يمنع المعروف لأن المعروف صغير.

إنسانٍ أدرك أن أعظم برهانٍ على حياة العبادة فيه أن يعود من بين يدي الله، فلا يأمنه الضعفاء فحسب، بل يجدون في قلبه مكانًا، وفي يده عونًا، وفي وجوده شيئًا من الرحمة.

وهذه هي الكلمة التي تتركها سورة الماعون في أعماقنا:

لا يكفي أن تحمل العبادة في هيئتكَ؛ دع العبادة تحمل إنسانيتك إلى مقامٍ أصدق.